رواية
Novel

محمود الريماوي

من يؤنس السيدة؟

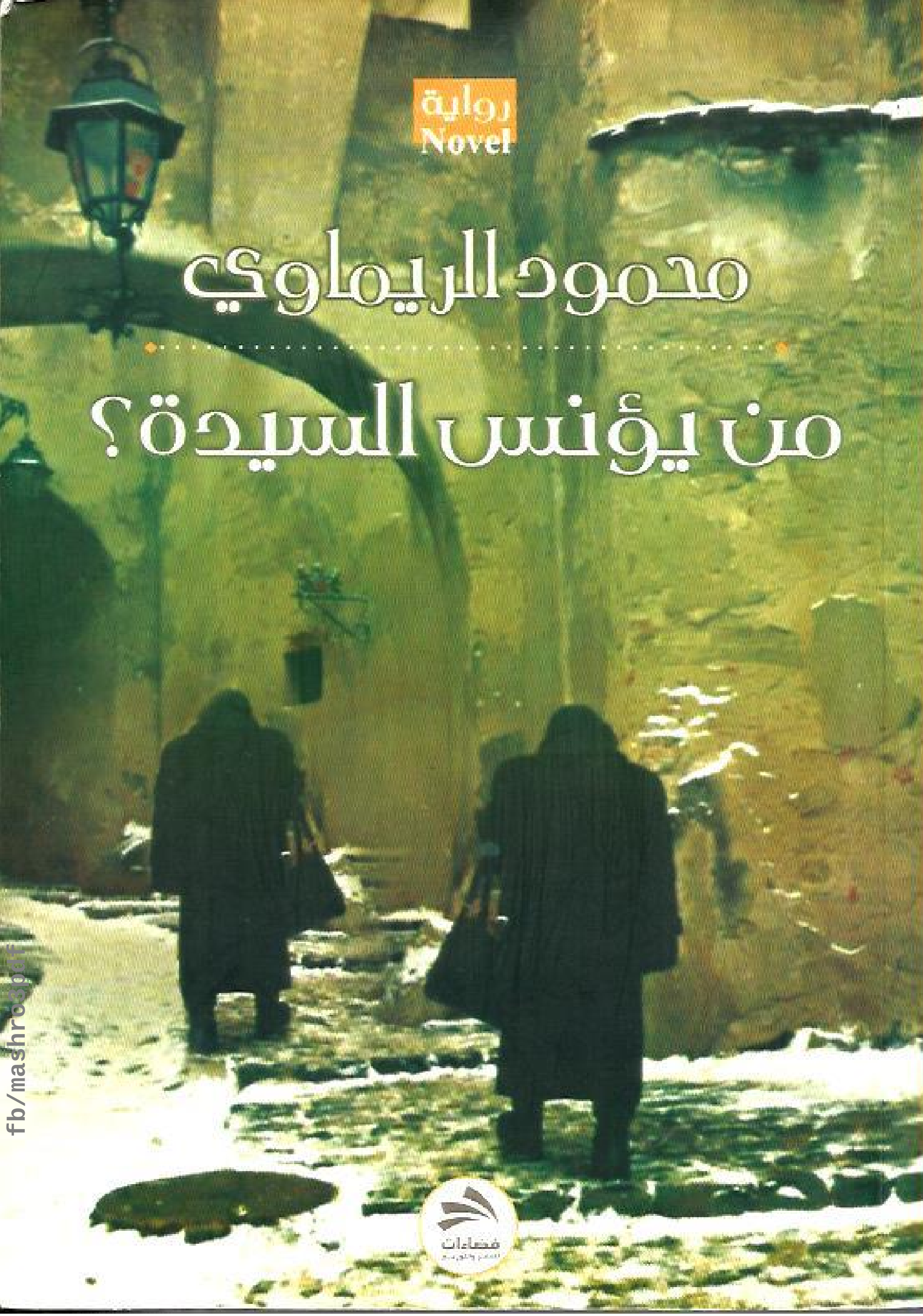

فضاءات
للنشر والتوزيع

fb/mashro3pdf

من يؤنس السيدة؟

fb/mashro3pdf

الطبعة الأولى- 2009

ر.إ 2908/6/2009

المؤلف: محمود الريماوي - الأردن

iSBN 978-9957-30-102-6

فضاءات للنشر والتوزيع

دار فضاءات للنشر والتوزيع

عمان- شارع الملك حسين- مقابل سينما زهران

تلفاكس: 4650885 (6 -962+) هاتف جوال:

0777/911431

ص.ب 925846 عمان 11190 الأردن

Dar_fadaat@yahoo.com

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: نضال جمهور

الصف الضوئي والإخراج الداخلي: فضاءات للنشر والتوزيع

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لاتعبر بالضرورة عن رأي دار فضاءات للنشر والتوزيع.

fb/mashro3pdf

محمود الريماوي

من يؤنس السيدة؟

رواية

فضاءات
للنشر والتوزيع

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

.. كيف واتاني دأبُ سلحفاة عنيدة متأبية
تعرف (كيف) تكبح أشواقها السريعة إلى أقصى حد
وتتخذ قناعاً حجرياً لضميرها الشفاف.

من كتاب "إخوة وحيدون" للمؤلف

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

1

السيدة السبعينية (في أواسط سبعينياتها) بالكاد رأت سلحفاةً في سنيِّ عمرها الطويلة، إذ يصعب على ذاكرتها أحياناً التفريق بين ما سمعته وما رأته، بين ما رأته بأمّ العين حيّاً ينبض وما شاهدته في الصور والأفلام، وقد صادفت ذات ضحى ليس بعيداً عن بيتها في الحي الذي أصبح شعبياً، سلحفاةً رماديةً داكنةً تدب على التراب بجوار الإسفلت، دون أن تستوقف كبيراً أو صغيراً.

المرأة تتجول في الحي جولةً كل يوم، لا لغرض بل كي تجول وتمشي، وتتسقّط أخبار أبناء الحي، وفي الأثناء تشتري بعض الحاجيات، وقد تقتصر هذه على ضُمة (إضمامة) بقدونس أو علبة كبريت، أو حتى لمجرد التعرف على الأسعار والحذر من الغلاء.

لم تسمع أخباراً ذات بال ذلك اليوم، وقد فوجئت وهي سارحةٌ في الدرب وفي الأفكار، بمخلوق زاحف صغير بحجم قبضة يدها أو أكبر قليلاً، استوقف المرأة المسنة وأوقف مجرى تفكيرها، فشعرت شعور من يعثر على شيء، دون أن تتأكد إذا كان هذا الشيء ذا قيمة أم لا: ما إذا كانت تبحث عنه بالفعل أم أنها تتوهم ذلك. كان يدبّ ببطء واستقامة نحو هدف غير معلوم، لا يلتفت إلى الوراء

fb/mashro3pdf

كحال البشر وبعض الحيوانات، وبدا هارباً من خطر يكمن وراءه، دون أن يلوذ بشيء غير اندفاعه إلى الأمام.

سارت المرأة بملامحها المكدودة، بملابسها الداكنة الطويلة بجوارها.. متباطئةً، كي تُجاري بُطأها وتتمعن في هيئتها. فكرت في أن وتيرة سير السلحفاة لحسن الحظ مناسبة، فلو كانت أسرع قليلاً لربما أرهقها أن تواكبها، وللفتت هرولتها انتباه الناس. ضحكت المرأة مع نفسها وهي تفكر: كيف لهذه الحزينة أن تسرع وهي تحمل على ظهرها صدفتها الثقيلة، دون أن تجد لها مثيلاً أو شبهاً في ذاكرتها المحتشدة. توقفت المرأة عن المشي، فإذا السلحفاة تتريث في زحفها ثم تتوقف.

حدث بذلك أول اتصال، أول تناغم بينهما. المرأة التي لم يكن يشغلها شاغل عملي في تلك الأثناء (وفي كل وقت تقريباً)، فكرت بامتلاك المخلوق الذي يسمونه في "اللغة" المحلية: قُرقعة. خاطر فجائي ومض في رأسها وألحّ عليها: خذيها.. سوف تؤنسك وربما أمكنها أن تُسدي لها خدمةً ما، تنال عليها جزاء يُحسب في ميزان حسناتها.

اقتربت منها وحاولت التقاطها بيد مرتجفة. المرأة لا السلحفاة شعرت بخوف، فكيف لها الإمساك بها وهي لا تثق بعد بها، فلربما تؤذي بالعض، أو بالخرمشة بنهايات أقدامها الزاحفة (زعانفها). وكما في مثل هذه المواقف الصعبة والنادرة، فقد ظهر من يُبدي

fb/mashro3pdf

الاستعداد للعون. أحد رجال الحي ممن لا عمل لهم، ممن يبددون أوقاقم في التنقل هنا وهناك، تقدّم بحذر وفضول وسأل أم يوسف عما بها، وهو ينقّل النظر بينها وبين المخلوق الزائر، الذي يقل وجوده في الحي بل في المدينة (الزرقاء) حتى يكاد ينعدم.. لا أعرف كيف ألتقطها.

- ما الذي تنوين أن تفعليه بها؟

- لاشيء.

- تأخذينها معك؟

- نعم (قالتها بحياء أخفض صوتها).

يعرف الرجل معرفةً تقريبيةً أن أم يوسف أرملة ووحيدة، على درجة من الاعتداد بنفسها، لا تسمح للرجل أن يتعالى عليها، فلم يدهشه هذا السلوك منها. كانت السلحفاة تتحرك ببطء وتتوقف، والسيدة تواكبها بالمشي والتوقف. انتظري قليلاً قال الرجل الذي عمل حارساً من قبل، ويحرس حالياً ذكرياته ورغباته المبهمة، وعاد بعد دقائق حاملاً كيساً بلاستيكياً خفيفاً أسود. قال لها: ضعيها داخل الكيس. ثم بادر هو وانحنى.. التقط السلحفاة برشاقة وأدخلها الكيس، تاركًا رأسها الصغير الشبيه برأس أفعى مكشوفاً. لم يسمع الرجل وهو من الفقراء الكثر في الحي، لم يسمع شأنه شأن أم يوسف أن للسلحفاة فائدةً ترتجى، و لم يقل له أحد إنها تلحق أذى بالبشر.

fb/mashro3pdf

سألها الرجل سؤالاً زائداً ومكرراً، عما ستفعل بما حملته. فضحكت بشيء من الحرج على السؤال الذي لا جواب عليه، وفكرت مع نفسها: لا بد أن تجد إجابةً، من أجل نفسها لا رداً على الرجل السائل.

أخذت تغذ خطاها نحو البيت، حتى لاحظت أنها تثير غباراً تحت حذائها، دون أن تلتفت إلى ميمنة أو ميسرة أو وراء كما كان دأب السلحفاة، وقد انتابتها مشاعر لهفة وتوجس، ليس مما تحمله فقط، بل من النظرات الفضولية ومن أقوال ناس لا يتركون أحداً في حاله.

عبرت عتبة باب بيتها وأدارت المفتاح، وفكرت على الفور: كيف وأين تحتفظ بها. لم تعثر على إجابة ولم تتوصل إلى حل، وارتبكت تحت تأثير حركة أقدام السلحفاة على راحة يدها، وبقايا خوف أن يصدر أذى ما عنها من حيث لا تحتسب. سارعت إلى الجارة القريبة، وسألتها إن كان ابنها الشاب في البيت، فسألتها الجارة: ما بك وما الذي تحملينه في يديك؟ كانت تحمل السلحفاة داخل الكيس. يد تحملها وترفعها من الأسفل، وأخرى تغطي صدفتها وتضغط عليها لتقييد حركتها من فوق الكيس.

خجلت أم يوسف وقالت: تعالي يا أم عوني وشوفي (انظري).

أم عوني ربة بيت أصغر من أم يوسف بعشر سنين وأكثر، نشيطة في جمعية خيرية لمساعدة الأرامل، وفنانة في صنع المعجنات والمعمول.

fb/mashro3pdf

كريمة في قضاء الحاجات وفي التسرية عن غيرها، ولها في كل عرس قرص، وفي العزاءات هي من يكفكف دموع الأرامل والثكالى، رغم أنها تذرف من الدموع أضعاف أهل البيت المصاب. أم عوني تعين أم يوسف في قضاء حوائجها: في تركيب لمبة، في تركيب جرة غاز، في إصلاح حنفية، في البحث عما فقدته أم يوسف ولم تجده، في المبادرة بإحضار بهار من بيتها، في نشر الغسيل وتشميسٍ لفراش أم يوسف. وهذه لا تقصّر معها ما وسعها الجهد: في مناولتها حلوى يحضرها أحد الأبناء من عمّان، في تذكيرها بأغنية ما للعرس أو ترنيمة لصغير، في تفلية الرز والعدس معها، في مناولتها مقصاً، تكييف ثوب تقصير بنطلون، قص أكمام قميص صيفي، وفي قليل من النميمة على من يستحقون. لمحت الجارة بسرعة الشيء الذي يتحرك. سألت: ما الذي تحملينه .. ضفادع؟ ضحكت أم يوسف: "قُرقعة". بهتت الجارة، فالسلحفاة غريبة ليست مكروهة ولا محبوبة. كل ما في الأمر أن وجودها نادر غريب، ما يجعلها كائناً غامضاً لا عاطفة تجاهه. لم تجد الجارة ما تُعلّق به، فقد لجمتها المفاجأة.

نادت على سامي فحضر ابنها الشاب، وسارع إلى الضحك المندهش مما رأى: ما هذا؟ "قُرقعة"، أجابت الامرأتان في وقت واحد. قال مندهشاً ومأخوذاً: من أين أحضرتِها، وماذا تفعلين بها يا خالتي؟

fb/mashro3pdf

أجابته أم يوسف: سأربّيها. كانت في الطريق القصيرة إلى البيت عثرت على نصف إجابة.

ما سمعه الشاب أقنعه، فجارتهم متزنة وعنيدة دون أن تعدم غرابة الأطوار، وقد حار في ما تريده منه. قالت: ساعدني لأضعها في مكان ما.. والله لا أعرف أين أضعها في البيت.

قبل أن يمشي معها سامي، كانت أمه سبقته مستفهمةً من ابنها، إذا كان وضعها في كرتونة كبيرة الحجم ملائماً، فأجاب على التو بالإيجاب، مستبعداً أن توضع في قفص أو أن تربط بحبل مثلاً. طلبت منه سؤال صاحب دكانة قريبة، عن علبة كرتونة سليمة بأربعة جدران. عندها تثاقل سامي وبدا له الأمر على شيء من الغرابة إن لم يكن السخف، فبماذا سيجيب صاحب الدكانة إن سأله عما سيفعل بالكرتونة، فقد اعتاد أهل الحي مفاتحة بعضهم بعضاً في أمور حياتهم، إلا إذا كانوا على عجلة من أمرهم. حين طلب سامي كرتونة من صاحب الدكانة، كان هذا منشغلاً بالفعل بالبيع لرجل وصبي، وأجاب أن هناك من أخذ آخر كرتونة قبل قليل، وبإمكان سامي سؤال صاحب الدكانة القريبة: تكثر الدكاكين، البقالات خاصةً الصغيرة منها، في الأحياء الشعبية وشبه الشعبية كهذا الحي، فهي تجارة من لايعرف التجارة ومهنة من لا مهنة له، من متقاعدين أو ممن يشكون مرضاً، وممن يعييهم المكوث في البيت، وحاجة الناس لشراء

fb/mashro3pdf

القليل والكثير من سلعها، بالنقد أو على الدفتر (بالدين) مؤكدة ودائمة.

قبل أن يسأل البائع في الدكانة الأخرى عن كرتونة، اضطر سامي لشراء علبة بيبسي لإشغال البائع عن سؤاله، ولتشجيعه على منحه إياها دون استفسارعن الهدف من الطلب، وهو ما حدث. أم يوسف تناولت الكرتونة من سامي لاهجة بالشكر له. أدخلت الكيس البلاستيكي بفوهته المفتوحة في عمق الكرتونة، ثم أخذت تسحب الكيس عن جُرم السلحفاة، وعملت على إطباق الكرتونة بيدها، وبقي أن تحصل على لاصق للإغلاق مع إبقاء فتحة للتهوية. ففكرت على التو بوضع قطعة عجين. وهكذا جرى.

ساور المرأة شعور أن حياتها على وشك التبدل. تضرعت في سرها أن يكون التغير إلى الأحسن لا الأسوأ : اللي فينا كافينا (ما نحن فيه يكفينا). ثمة مخلوق ضعيف وغريب بات يشاركها الغرفة، لعله يقابل الإحسان بإحسان لا بـ "قلة أصل". لن تكون وحيدة بعد اليوم. لن تضطر لاقتناء قطة لا تشبع من طعام أو حليب، وتظل تحف بأقدامها لا تفارقها. لن تحتاج لكلب يقض مضاجعها بالنباح ليلاً، لسبب أو دون سبب، ويدعو كلاب وكلبات الحي والجوار لقضاء أمسيات معها تحت شباك غرفتها.

fb/mashro3pdf

ماء.. تذكرت أن تزود ضيفتها بماء، فكل المخلوقات تعطش. بحثت عن صحن معدني من ألمنيوم، مهمل لا تستعمله. وجدته وملأته بماء الحنفية.. لبثت هنيهات واقفةً متوجسةً من فتح باب الكرتونة. ثم فتحته ببطء حتى لا تفاجأ بقفز السلحفاة نحوها، وقد وجدتها مستكينةً في العتمة وبريق عينيها بالكاد يلمع. لا، سحنتها ليست أليفة. واختفت عنها سمة الطرافة التي بدت عليها وهي تدبّ قرب الرصيف. بها مسحة شبه آدمية لكنها غير أليفة (فكرت في تلك اللحظة أن وجودها قد يكون نذير شؤم..). غداً سأعتاد عليها وتعتاد عليّ. وضعت صحن الماء قريباً منها، وسحبت يدها بخفة وأغلقت باب الكرتونة. وسرعان ما فكرت:ماذا تطعمها..وضحكت مع نفسها وهي تتمتم: جبت لحالي شغلة (أحضرت لنفسي ما يشغلني ويقلقني).

fb/mashro3pdf

2

ليست هي المرة الأولى التي تقتني فيها أم يوسف حيواناً أليفاً، ففي سيرة حياتها أيام الطفولة.. في البيت العائلي الأول والأحياء المجاورة، وفي بيت الزوجية بيت المرحوم "أبو يوسف"، وكما هو مألوف في حياة الريف وهوامش المدن، صادفت وتعهدت قططاً، كلاباً، بغالاً، خيولاً وحميراً، من كل الأعمار والسّحن والحجوم، منها ما هو مستأنس حَيِيّ خدوم، وبعضها ثقيل الهمّة والوطأة.. أذاه يفوق نفعه. وخالطت مواشي من خراف، أغنام، تيوس، أكباش، أبقار وعجول بلا عدد، أطعمتها وسقتها. أدخلتها إلى الحظائر وأخرجتها منها، تحملت رائحة روثها وغاصت فيه في ليالي الشتاء، وتبادلت معها المناوشة، وفركت بالرماد جلودها لقتل حشرات عالقة. رأت ثعالب وذئاباً وغزلاناً وأرانب في البراري، وكل منها إما خطف انتباهها مثل الثعالب الشياطين، أو هبط لمرآه قلبها مثل الذئاب الشرسة، أو خطف روحها كالأرانب البيضاء الشاردة والغزلان العسلية الرشيقة.

لمحت يوماً ضبعاً من بعيد يتهادى متثاقلاً، دون أن يكون بطيئاً فولّت راكضةً: كان ذلك في البلاد قبل الهجرة (قبل 1948)، في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من عمرها، ساعة غروب في القرية، بينما شقيقها

fb/mashro3pdf

أحمد الأكبر منها بعام، يسبقها في رحلة الإياب من الكروم إلى القرية. لحقت بشقيقها لاهثةً متقطعة الأنفاس لكن غير مضبوعة، قائلةً إنها رأت ضبعاً بين أشجار العم فلاح المجاورة، فاستبعد شقيقها صحة الرؤية وأسرع في خطاه، أمارة على خوف ناجم عن التصديق، ما زاد من خوفها. الأب بعدما تبلغ بما رأته الابنة الصبية، تمكن بعد يومين بمعاونة جيران وأقارب من تمشيط المنطقة، ورصد الضبع والكمون له، ثم النيل منه بخرطوشة عثمانية. خافت الطفلة من رؤية الضبع حتى وهو ميت، وقد قيل لها إن رائحة كريهة تنبعث منه، وتعلق في خياشيم من يشمها. حفروا له حفرة في الخلاء وطمروه فيها. لم ترَ بعد ذلك ضباعاً ولو من بُعد، رأت بشراً أشد سوءاً من ضباع ووحوش، منهم أولئك الذين هجّروها من بيت نتيف، تحت حراب البنادق ومن البلاد (فلسطين).

تتذكر أصوات طلقات نارية، لبضعة أيام غير بعيد عن أطراف القرية، وأن والدها بكوفيته ودمايته يختفي في الليل، ثم يظهر لبعض الوقت في ساعات النهار، وأنها استيقظت منتصف ليل 14 أيار على وقع قذائف قريبة في حارتهم، الحارة الفوقا، والتصقت بأمها حتى شقشق الفجر، فبدأت عصابة "يهودية" غزو القرية بعد انسحاب المقاتلين إلى قرى مجاورة، وتتذكر أنها سمعت بجيش مصري في البلد وقد انسحب، وعرفت بعدئذ أنه انتقل إلى الفالوجة. لقيت أكبر ترويع وأعظم كراهية من أشخاص غريبي الوجه واليد واللسان، تجهلهم ولا يعرفونها، ووقف

fb/mashro3pdf

هؤلاء في باحة البيت ونظموا طرد العائلة وجيرانهم، وبقية أهالي القرية فجر اليوم التالي، فيما الأب غائب بصحبة مقاتلين في مكان مجهول.

خرجوا خمسة، هي وأمها وشقيقتان: الأكبر فاطمة والأصغر منها سليمة وشقيقها محمد مشياً إلى بيت أمّر، ومعهم غنمة شامية لاقوا عناءً في مطاردها وحملها على الانتظام في المشي بصحبتهم أثناء نزوحهم. هناك التحق بهم الأب، وكان لقاء وعناق وفرحة لم تدم فقد مرضت الشقيقة فاطمة فجأة، أعياها المرض ولم يعثروا لها على دواء ولا من يداوي، وسرعان ما ذبلت وماتت ودفنوها هناك بلا جنازة، ودون معزين سوى عائلة مجاورة.

عرفوا من الأب أنه تسلل لبيت نتيف مرتين، بعد أن أخفى سلاحه في مغارة، وفوجىء أنهم دمروا بيوت القرية وقد وصل إلى بيتنا وخاف أن نكون مدفونين تحت الأنقاض. من بيت أمّر إلى عقبة جبر قرب أريحا، ومنها إلى مخيم الحسين على تخوم جبل الترهة في عمّان. وتنسى أنهم أكلوا في بيت أمّر لحم الغنمة الشامية.. تنسى فقد كانت تحبها وتلعب معها بالركوب على جذعها الخشن. عرفت كلمة لاجئة وكلمة لاجئين، حتى قبل أن يفارقوا الديار، وثقبت الكلمة أذنها، وقد اعتمدها واستخدمها لمخاطبتهم أقرب الناس من أهل البلاد، ويقشعر لها بدنها حتى اليوم. بالنسبة لها: لاجئة، مثل كلمة مريضة طال مرضها، أو مثل كلمة معاقة.

fb/mashro3pdf

حسيبة تتذكر الصوت المرعب في تلك الليلة، لما كانوا يسمونه في البلدة راجمات الألغام، التي تخض الكائنات والموجودات، وتسترجع تحت طبقة هذه الذكرى أصواتاً أخرى: رجال العدة والرايات الخضراء، الرجال المسلمون في القرية ومن قرى مجاورة: عجور وأم برج وبيت أولا وخاراس، الذين يقصدون مقام النبي بولس في ظاهر البلد لاستسقاء المطر، ومعهم تخرج القرية كلها. كانت تقف مع صويحبات لها، قرب رجال فارعي القامات مفعمين بالحماسة يحملون الدفوف ويقرعونها، تستغرقهم الانفعالات ويتمايلون بالأدعية من ساعة الضحى حتى قبيل غروب الشمس، ويشخصون بأنظارهم إلى السماء العالية، وكانت تطربها الأصوات المنغمة وتحاول مع بقية البنات تقليدها، وهناك تأكل من أمها خبزاً مدهوناً بسمن وسكر وحبات قطين (تين مجفف). يوم العدة مثل يوم احتفال مثل عرس، لكن بلا دبكة ولا عريس ولا عروس.. تضحك مع نفسها: كنا بعقولنا الصغيرة ننبسط في مناسبة الجفاف تلك. حتى المحل نُداريه بالبهجة. وتتذكر أن المطر ينهمر بعدئذ.. بعد يوم يومين أسبوع أسبوعين، لا تتذكر متى، لكنه يهطل وتشعر حينذاك في أعماقها ومع الأهل، أنّ باب السماء مفتوح لهم، وأنه قد استجيب للأدعية والتضرعات.

دوي راجمات الألغام، لم ينل من ضرب الدفوف ودبكات الأعراس. وهو ما رددته على مسامع جارتها غير مرة.

fb/mashro3pdf

3

في الليلة الأولى أتاها النوم بصعوبة بالغة وفي وقت متأخر. كانت تخشى خروجاً مفاجئاً للسلحفاة وتوقفها قرب رأسها، أو سعسعتها بين أقدامها. نسيت سؤال رجال الحارة المتعلمين عنها: ما إذا كانت تؤذي أو تضر. لماذا المواربة.. لقد خجلت من سؤالهم، فهي من الحصيفات الراجحات العقول، ممن يُستشرن من نساء الحي ومن بعض الرجال أيضاً في أمور مستعصية ودقيقة، وممن لا يعتصمن بالصمت إذا رأت حالاً مائلاً، أو عوجاً في سلوك أحد. ولو سألت فلسوف تضع نفسها في موقف حرج: فما دمتِ لا تعرفين خيرها من شرها، فلماذا تقتنينها إذن..لماذا جئت بها؟

قبل أن يدركها النعاس تذكرت بحرقة أنها لم تضع لها أي طعام، فبدت أمام نفسها بخيلة أو أن ذاكرتها تُضيّع. نهضت وسارعت لتفتيت قطعة خبز وشقت حبة بندورة طرية نصفين، ووضعتها على مزقة من صحيفة وأدخلتها بحذر اليها.كانت الضيفة ساهرةً في العتمة، وقد تقدمت ببطء إلى الطعام، فيما كانت أم يوسف تبحث عن بقايا العجينة لتلصق بها فتحة الباب.

fb/mashro3pdf

استرخت في فراشها وأخذت تصغي إلى صوت حركة السلحفاة. حركتها.. خشخشتها على غرابتها، بدت هادئة لا تنم عن توتر أو عدوانية، ما طمأن أم يوسف ومكّنها من الإغفاء البطيء.

النوم، والصباح رباح.

قبل الصباح وقبل الفجر تستيقظ لأداء الصلاة. في تلك الليلة تأخرت قليلاً عن الاستيقاظ، سمعت الآذان الثالث لقيام الصلاة فسارعت للوضوء في الحمام الذي تخشى دخوله ليلاً، وقد تطيّرت من التأخير. وقفت للصلاة بعد أن حركت الكرتونة ببطء، كيما تكون قبالتها في أثناء الوقوف والركوع والسجود. ما إن أتمت الركعة الأولى، حتى كانت السلحفاة التي لا اسم لها، قد خرقت فتحة الكرتونة وكسرت السكون بصورة مفزعة، وخرجت لأول مرة من مكمنها. التقطت أم يوسف أنفاسها وبلعت ريقها بصعوبة واهتزت ركبتاها، وسارعت تستعيذ من الشيطان وتبسمل. وتخيلتها مارداً ممسوخاً متضائلاً خرج من قمقم. لبثت السلحفاة في مكانها قبالتها، فعزمت أم يوسف مستقويةً برحمة الرحمن على إكمال صلاتها. وقد فعلت وإن على شيء من العجلة. وفيما التفتت يسرةً ويمنةً في دعاء التشهد الأخير، إذا بالصغيرة اللابثة في موضعها تهز رأسها مرتين، كطفلة مطيعة رضية، ما جعل قلب أم يوسف يخفق بما لم تدرك كنهه و لم تستشعره من قبل. قلبها خفق بإحساس امتزجت

fb/mashro3pdf

فيه العاطفة بالغرابة بالاستيحاش (شعور قوي بالوحشة، ونزوع شديد لوضع حد لها).

بسملت واقتربت منها. قرفصت وشرعت في النظر إلى عينيها: بدت العينان المغرورقتان لكائن أكبر سناً من عمر هذه المخلوقة الصغيرة.. وتذكرت حينها أنها سبق لها رؤية صور في مكان ما، لسلاحف كبيرة الحجم والعمر لا تسر الناظرين، وليست مثل هذه "القليلة" التي تشفع لها براءتها. لم تستطع التحديق في العينين الناعستين الساهمتين، ورفعت رأسها عنها بعد أن لم تلق منها استجابة تذكر، فأخذت السلحفة (هكذا تلفظها أم يوسف، إن لم تسمّها باسمها الشائع: قُرقعة) أخذت تزحف ببطء وتتوقف كأنما تتعرف على أرجاء الغرفة بالتدريج وبأقل جلبة، أو تقوم بتجريب الزحف على الأرضية المبلطة الملساء وهي تتبعها، حتى أتمت الدوران دورةً شبه كاملة، فغرفة أم يوسف ليست واسعةً ولا كبيرةً، وهي نفسها غرفة الاستقبال، أما الغرفة الداخلية فهي لأبو يوسف (لهما معاً، لكن أم يوسف تخصه بها بعد رحيله)، وببعض التريث دلفت السلحفة إلى مأواها، على شاكلة العارف طريقه وهدفه.

تنهدت أم يوسف مرتاحةً، فقد باتت ضيفتها أليفةً مألوفةً. وقد أمكنها بعدئذ أن تسترخي وتغفو بعض الوقت، دون خشية من مفاجآت غير سارة.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

4

نامت في صباح خريفي مفعم بالنداوة، وبالكاد سمعت السعلات الأولى للجار أبو عوني، وصياحاً متقطعاً لديك بعيد وزامور سيارة، وسرعان ما رأت السلحفة في منامها، تطير طيراناً ليس عالياً، فطار قلبها طيراناً هيّناً. لم تعرف في حلمها إن كان عليها أن تفرح أم تغتم لطيران ضيفتها، لكن المفاجأة أثارت حواسها إثارةً قويةً، فالمخلوق الصغير بدا غريباً أول الأمر، وها هو يزداد غرابةً، وهاهي تزداد جهلاً به.. لكن الجهل هذه المرة يبعث السعادة في أعطافها الجافة. بدت لها السلحفة تلعبِ وتتغندر هانئةً.. وبما أنها صغيرة ووحيدة فلتلعب وتعبث كما تشاء. وبصورة ما استيقظت لديها مشاعر أمومة تجاه الغريبة وتاقت لأن تلتقطها وتحتضنها، وخشيت أن يكون ذلك حراماً. في مرة ثانية شعرت أم يوسف أنها صغيرة خفيفة ودماءها تغلي في عروقها كالصغار (دم السلحفة بارد).

لم يساورها في منامها حرج إزاء ما شعرت به، بل أحست أنها صغيرة خفيفة خالية البال حقاً ولو أنها ليست صغيرة السن، وانتشت بشعورها. أخذت السلحفة تطير في فضاء الغرفة وحفّت بجرمها باب الغرفة الثانية المغلق لها أن تطير على أن لا تسقط على رأسي. رأت أم

fb/mashro3pdf

يوسف بعدئذ أن كل شيء يصعد ويطير: البيت بموجوداته القليلة من سرير وكرسيين بلاستيكيين ومدفأة وخزانة وحذاء ومشاية وتلفزيون 18 بوصة قديم وثلاجة بيضاء أقدم و"فرن غاز" بلا فرن وورود قماشية، جميعها تطير.. ومعها تطير أم يوسف يحملها الهواء وتطوف فوق الحي، دون أن تلمح قبر أبي يوسف على تخوم الحي، رغم أنها لم تكن لا هي ولا السلحفة بطيئةً في طيرانها.. لمحت فقط وجهه يتبسم لها من وراء غلالة وأنفاسه تلفح، رغم ابتعاده، وجهَها، ويكاد يهتف دون أن ينطق بكلام. كانت مضت سنتان أو أكثر لم تر وجهه فيها، هو الذي غادرها محمولاً على أكف رجال مثله منذ تسع سنين دون أن يصيبه مرض، باستثناء أن قلبه توقف فجأةً عن النبض بعد أن تناول طعام الغداء.. ثم رأت السلحفة تحط فجأةً على الخزانة مثل حمامة تحط على شجرة، قبل أن تعاود الطيران المنخفض والعالي في فضاء الغرفة. حاولت اللعب معها.. أن تتعقبها وتمسك بها. في محاولاتها تعثرت بكرسي ووقعت أرضاً، فاستيقظت تلهث وتبسمل وتغالب ألماً في كاحلها، وقد فقدت بعضاً من حيويتها.

رفعت جذعها بعناء، وجالت ببصرها في أرجاء الغرفة نصف المضاءة بشمس أول الصباح الشحيحة: كل شيء على حاله مقيم في مكانه، لم تمسسه يد ولم تُحرّكه مشيئة. هدأ وجيب قلبها، وتمنت في سرها لو أن شيئاً قد تبدل، لو أنها استيقظت في البيت الذي شهد

fb/mashro3pdf

ليلة دخلتها، لو أن أبا يوسف في إطار الصورة المثبتة على الحائط خرج عن تجهمه، وتبسّم تبسّمه العذب كما رأته في المنام.

نهضت بحذر ولهفة لاستطلاع ضيفتها، التي كانت تطير قبل قليل بلا أجنحة، ولدهشتها رأت الكرتونة خاويةً كما أحضرها سامي ابن الجارة أول مرة. لم تعثر عليها في مأواها، عثرت فقط على فضلات بنية قليلة منها، وجالت بنظرها مرةً أخرى في الغرفة فلم تعثر عليها. هتفت بذعر: أين هي.. طارت؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

5

وقفت ترتجف، مخافة أن تكون ضيفتها جنيّةً على هيئة سلحفة، وأن تكون أدخلت شراً إلى بيتها وهي غافلة عما تفعل. وقفت حائرةً متوجسةً من أن تفاجئها اللعينة، بالقفز من مكان ما على رأسها. اتجهت إلى باب الغرفة لاستجلاء ضوء النهار، لعل الضوء يفرج عما بها من كرب. فتحت الباب وجالت ببصرها في الباحة الضيقة وإذا بضيفتها كامنةً لابثةً في إحدى زواياها، قرب تنكة الليمونة. لقد وضعت أم يوسف ثلاث تنكات ملأتهما بتراب أحمر، زرعت في إحداها ليمونة قليلة الثمر وفي الأخرى مجنونة، بعد أن وضعت تحتها طوباً لرفع التنكة إلى أعلى حتى تقترب النبتة من حافة السور. وفي الثالثة زرعت ورداً جورياً يذبل ما إن ينمو، ثم ياسمينةً تعثرت في نموها، قبل أن تستبدلها بشجرة مخضرّة لا اسم لها، تشبع حاجتها إلى الأخضر، ولقليل من نداوة تكسر جفاف الزرقاء وتمتص غبارها..

كانت السلحفة تسللت من فرجة الباب الذي لم تغلقه أم يوسف جيداً، من فرط لهفتها لإدراك موعد صلاة الفجر. رأت السلحفة تتجه ببطء النمل إلى الباب الخارجي، فوقفت أم يوسف وراءها وتساءلت إن كانت ضيفتها ترغب بمفارقتها. طرقعت بما ترتديه في

fb/mashro3pdf

قدميها: حذاء بلاستيكي منزلي مُصدرةً صوتاً مسموعاً، فلم تتحرك الغريبة. حاولت مناداتها.. لم تفلح في اختيار نداء صوتي مناسب، كما طالما فعلت ونجحت مع قطط وكلاب وخراف وخيول. فاستدارت ووقفت أمامها تسُد عليها الطريق. شعرت أم يوسف ببرودة النسمات الأولى للصباح تتسلل إلى بدنها، وأخذت تمشي أمامها وتتلفت نحوها بنظرات حانية مستدرجة، وتستدير ببطء كما سبق أن فعلت مع أطفالها ثم مع أحفادها الصغار، حين علمتهم المشي نحوها أول مرة، وقد نجحت المحاولة فأخذت السلحفة تتبعها طائعةً وهي تعبر باب الغرفة. بذلك استعادتها كمن يستعيد ابناً مريضاً ضلّت به السبل، وبحثت عما تطعمها، فقطعت لها خيارةً ذابلةً وحبة بندورة ثانية، وضعتهما داخل بيتها وتركتها تتناول فطورها. نهضت وقد انتشر ضوء النهار في الغرفة، كي تقلي بيضتين وتشرب فنجان شاي بالنعنع وتتأمل في حالها وأحوال الدنيا.

fb/mashro3pdf

6

تنبهت أم يوسف إلى عجزها عن مناداة ضيفتها بأي نداء. وهي مشكلة لم تصادفها مع حيوان أو طير من قبل، فحين يفشل نداء صوتي ما، كان يتم على التّو اختراع نداء آخر وتنغيمه، غالباً ما يلفت انتباه السامع طيراً أو حيواناً فيستجيب له. الحشرات فقط لا تأبه لأية نداءات صوتية تخاطبها. السلحفة ليست حشرةً فهي الآن بحجم صوص، مدرعة بدرع صلب تعلوه حلقات، وحين تكبر سوف تصبح بحجم ديك أو أكبر منه. وقد سرت في نفسها رهبة من سلحفة كبيرة الحجم ماكرة وثقيلة، تفعل ما بدا لها دون إذن من أحد.

ثم تذكرت.. منذ ضحى الأمس، منذ حلت ضيفتها عليها، فقد ظل السكون مطبقاً على البيت، كأنها ما زالت وحيدةً منفردةً، وكأن أحداً لم يعبر عتبة بيتها. حارت أم يوسف في هذا السر: هل تبقى ضيفتها أسيرة الصمت، وهل تأسرها معها في هذا السكون، وما الفائدة إذن من إحضارها؟

خائفة. ربما تخاف، ويربط الخوف لسانها. لكن القطط والكلاب حين تخاف، فإنها تصدر أصواتاً للاستغاثة أو لتخويف غيرها. ربما

fb/mashro3pdf

لأنها ما زالت صغيرةً، وحين تكبر تتعلم إصدار أصوات. همت أم يوسف بالغناء لها بأغنيات هدهدات الأطفال. وقد ترددت في ذلك، خشيت أن ترتكب بذلك خطأً أو مكروهاً، مع إدراكها أن خشيتها زائدة عن الحد، فالذين دعا للرأفة بالحيوان. ولكن ما العمل مع أم يوسف التي تدقق في كل شيء. نهضت بعدما تناولت فطورها على عجل. تركتها في المترل ونادت على الجارة أم عوني. لم تكن في البيت كما أبلغتها ابنتها دلال االصبية التي أنهت دراسة كلية المجتمع وتنتظر "نصيبها" في البيت، أو وظيفةً ما تغنيها عن طلب المصروف وتضمن لها شحن الموبايل متى ما فرغ، فرأت أم يوسف في غياب الجارة حجةً إضافيةً كي تخرج.. تتمشى، تُنشّط مفاصل ركبتيها وتتشمس، وتشتري بعض الأغراض إذا كانت الأسعار مناسبةً.

ما إن ابتعدت نحو مائة متر، حتى صادفت الجارة ذات الجسم الممتلئ والوجه الصبوح والشعر الذي يختلط سواده ببياضه، المسرّح المصفوف بتسريحة المطربة اسمهان، تحمل بعض أكياس المشتريات. تبادلتا على التو الضحك الهانئ: على شيء (على خصلة شعرات بيض تسللت من تحت الحجاب الكحلي على جبين أم يوسف) وعلى لا شيء. فمجرد التلاقي، خاصةً إذا تم بالمصادفة، يثير البهجة والتهلل. سألتها أم يوسف عن الأسعار، عن سعرالملوخية بالذات، فحذرتها هذه أن تشتري من دكان أبو علي الأطرش: طماع

fb/mashro3pdf

وبضاعته تعبانة (رديئة). فطمأنتها أم يوسف أنها لا تدفع له إلا بحق ربنا (ما يُرضي الرب من سعر عادل). وسألتها الجارة: أين السلحفة؟ فضحكت لسؤالها: هل تريدينني أن أخرج بها وأمشي معها أمام خلق الله كل يوم، يكفي أني فعلت بالأمس.. ومن رأى فقد رأى، ولا ضرورة أن يراني كل الناس مصحوبة بها. فأنبأتها الجارة أن ابنها سامي أخبرها أن السلحفة ليست مكروهةً، وأنها تجلب الرزق وترُد عين الحسود. لقد صدق حدسها. سألتها أم يوسف: هل هذا عندكم في الدين؟ فضحكت أم عوني: ما دخل الدين بالسلاحف؟ خفق قلب أم يوسف لما سمعته، وقالت: قلبي لم يطاوعني أن أتركها للسيارات وملعنة باب الحارة. وكانت تود القول إن هاتفاً في داخلها هتف لها أن الرحمة بهذه المخلوقة تفتح لها باباً في السماء، وتغنيها عن مخالطة من لا تحب مخالطتهم. قبل أن تمشي كل منهما في سبيلها، طلبت أم يوسف من جارتها أن لا تتحدث مع أحد بشأن السلحفة التي عندها. فوعدتها هذه خيراً، طمأنتها وإن استغربت الطلب قائلة: في (هناك) ناس تُربّي نسانيس (قرود صغيرة) في بيوتها.

أم عوني الثقيلة (الممتلئة) والنشطة، مقارنةً بجارتها الناحلة الخفيفة نصف النشيطة نصف الكسولة، مشت ولم تلبث أن استدارت بوجهها صوب أم يوسف:

- اسمعيني.

fb/mashro3pdf

- خير؟

- هل الكرتونة مغلقة عليها؟

- نعم.

- وكيف تتنفس؟

تنهدت أم يوسف ولم تفقد حس المداعبة:

- هل أفتح لها شباكاً؟

- خزقي الكرتونة (أثقبيها). سأعطيك مفكّاً عندما تعودين.

لامت نفسها أنها لم تتنبه للأمر مثل أمور كثيرة تسهو عنها، فحتى النبات يموت إذا كمرته في صندوق مغلق. وكان عليها لأجل هذه المهمة أن لا تتأخر في العودة.

اشترت أم يوسف ما تيسر من أغراض من أبو علي الأطرش وغيره. وهي في طريقها، في غمرة سرحانها وتحت غشاوة عينيها، لمحت على جانب الطريق، جسماً ضئيلاً يتحرك ويزحف ببطء.. سلحفة؟ شهقت من غرابة الموقف: واحدة أخرى؟ لن آخذها. لم تأخذ الكيس المنتفخ الذي كان الهواء يحركه. وفكرت ماذا ستطعمها حين تعود. وتساءلت إن كانت تحتاج حليباً، واستبعدت الأمر ولامت نفسها على ما احتسبته حماقةً منها. وصادفت في طريقها شابين فارعين شعر كل منهما يلمع في الشمس، تعرف أحدهما وتجهل الثاني، يتكئان على الباب المعدني لمحل مغلق، ويهرُجان في

fb/mashro3pdf

السياسة عن العراق وأفغانستان. قالت لنفسها إن كثرة الحروب ليست لوجه الله، بل لينسى الناس فلسطين. حاول الشاب الذي تعرفه (تعرف أمه الداية) أن يسألها رأياً، فأشاحت بيدها متبسمةً له، متساءلةً في سرها عمن يكون الشاب الآخر. ثم لم تعبأ بالأمر: الناس كثرت، ولن أتمكن من معرفتهم كلهم، وضحكت لحالها وهي تردد: العرب عدد..

مشت إلى البيت وفي بالها أن تنجز تهوية الكرتونة، ببضعة ثقوب على الجوانب وعلى سطحها. وقد جاءها خاطر أن السلحفاة قد تكون لأحد الناس وهربت منه، أو ضلت طريقها إليه، وربما اتهمها أحد بالاستيلاء عليها: ييجي (ليأتِ) ويأخذها حلال زلال عليه.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

7

مع اقترابها من البيت سمعت صوتاً ينبعث من الداخل، صوت تلفزيون يرطن فيه رجل بما لم تسمعه و لم تميزه. من شغّله..هل السلاحف تفتح التلفزيون أيضاً؟ أم يوسف نفسها لا تفتح التلفزيون إلا لماماً، لطالما أحبت سماع الراديو قبل أن يخرب الجهاز القديم الذي كانت تقتنيه منذ بدأ عصر الراديو الترانزستور، وقد زاده الساعاتي يعقوب الذي يصلح راديوات خراباً، ثم أقنعتها أم عوني أهم في بيتهم لا يقتنون راديو، وأن التفزيون فيه أكثر مما في الراديو فما لزومه، وعندها تلفزيون بعشرين محطة أو أكثر فماذا ينقصها؟ لا ينقصها شيء سوى سلام الروح والبدن. وأن تسترد ما فقدته من أماكن وأصوات ووجوه وروائح تحبها، وأن تجد ما تملأ به يومها. سوى أن تجمع ما تبعثر من شتاهًا، إذا كان لذلك من فائدة.

دخلت البيت متهيبةً. لم يكن التلفزيون مفتوحاً. كان صامتاً مثل الخزانة. أطفأته اللعينة. إلى هذا الحد ابتعدت بها خواطرها. أم يوسف دار رأسها بها، و لم يتوقف عن الدوران إلا حين تنبهت إلى أن صوت التلفزيون يخرج من عند الجيران، دار أبو محمد وليس دار أبو عوني. ما أشطرني وبّخت نفسها. أما السلحفة فقد فتحت عليها الكرتونة،

fb/mashro3pdf

لتهويتها والاطمئنان عليها، فلم تجدها. قالت متهكمةً: أنا خرجت وهي خرجت. عادي، كل واحد يخرج إلى سبيله. وجدت مرةً ثانيةً بقايا فضلات وفكرت أن تفرش تحتها جريدةً، وكان هذا ما وجب عليها فعله من أول ساعة أحضرت فيها ضيفتها. عادت رأسها تدور بها. هل غادرت ورائي.. غافلتني وهربت؟ خرجت إلى باحة المدخل الإسمنتية، حيث وجدتها هناك في المرة الماضية. لم تجدها ولم تعثر على أثر منها. فكرت على التو أنها قصدت المكان الذي التقطتها منه. كررت لنفسها: جبت لحالي شغلة. وفكرت أن لا تعبأ بها، أن تتركها لحالها.. أن تنساها.. أن تدعها تبحث عن وليف (إلف) لها يشبهها وتأنس به، فما الذي يمكن أن أقدّمه لها غير حبسها، أو أن تدعها تعود سالمةً إلى أهلها السلاحف والله وحده يعلم أين هم، وأينما يكونون فهم أولى بصغيرتهم. لم تُواطن من قبل سلحفةً، ولا عرفت أحداً ربّاها لا في البلاد ولا حيث هي، ولن تنجح في تربيتها. لكن أين اختفت الشيطانة؟

fb/mashro3pdf

8

مضى يوم واحد على وجودهما معاً، حسبته حسيبة، وهذا اسمها قبل أن تنجب يوسف، حسبته شهراً وأكثر. باتت لها ذكريات معها. ذاكرتها أخذت تُشحن وتمتلئ بالجديد، بعدما كانت فارغةً إلاّ من صور وترجيعات قديمة. أصبح لديها ما تنشغل به. هناك من رأى السلحفاة معها، من يعرف بوجودهما معها، وسوف يسألها عنها. لن تستطيع الإنكار. لن يصدق أحد أنها فص ملح وذاب. قد يفكرون أني بلا قلب وعملت معها عملة (ألحقت بها أذى).

الأبناء طه وماجد في عمّان، ويوسف في السعودية لا يعرفون شيئاً. أحسن. لقد اختارت البقاء في بيتها حتى لا يتحكم بها أحد. تحب أن تعيش "مستقلةً" كما وصفتها دلال بنت الجارة. وهو وصف أعجبها وطربت له ثم تهيبت منه، فقد خشيت أن يعني انفضاض الجميع عنها، فما دامت مستقلةً فلتستقل بحالها، وكل واحد عند أهله ينام على الجنب الذي يريحه، يتذكر من يريد تذكره وينسى من يشاء نسيانه. على أنها تعرف أن من يخرج من داره يقل مقداره. الأبناء الثلاثة يعيلون أسراً، وقد احترموا رغبتها ويتفقدونها بين أسبوع وآخر (أحدهم، طه الأوسط، يأتي من العيد الصغير للعيد الكبير، مع

fb/mashro3pdf

ذلك يأتي زعلان وكأن أمه هي الغلطانة.. لو انتقلت عند أحدهم سيفتك بها الزمق (الزهق) بين أربعة حيطان، وسوف تُصدّعها صرخات الأطفال وشقلباتهم ودوشة التلفزيونات ورنين التلفونات. لا تملك حسيبة هاتفاً، حاول ماجد إقناعها بحيازة موبايل فلم تقتنع بالجهازالصغير وبكثرة كبساته. لا تجد نفسها بحاجة له، رغم رغبتها في سماع أصوات أبنائها وزوجاتهم. إذا احتاجت الاتصال بين مرة مرتين ثلاث مرات في السنة تلجأ للجارة. تحب أحفادها وتحدب عليهم مثل أمهاتهم، ولا تطيق شيطنتهم إلا بين الحين والحين وفي المناسبات. أما السلحفة فصامتة مثل الخزانة والثلاجة. إذا كانت صدفتها الصلبة تتكلم، فهي تتكلم. ربما لا تسمع. طرشاء. عرفتِ ماذا تختارين يا حسيبة. حيوان لا ينطق ولا يسمع وإن شاء الله أنه يرى بعينيه المفتوحتين.. أي هناء أنتِ فيه.

أهل الحارة لا يدرون شيئاً عن السلاحف، ولا أين تذهب الدنيا بهم. اسألهم عن القطط التي تسرح وتمرح، تتدلل وتشقى أكثر من الأطفال، وتنوح في الليل. اسألهم عن الكلاب التي تجوح في العتمة. عن السلحفة لا تسل، فلن يجيب أحد. إذا أجاب يكون جوابه غلط، لأن المجيب يجيب من عنده (من عندياته)..كيفما اتفق). أما الصغار فلا يصعب عليهم أن يجيبوا إذا كانوا رأوها أم لا. ولو رأوها لن يعرفوا ما هي. يطاردونها ويضربونها أولاً. يضربونها كي تبوح لهم

fb/mashro3pdf

ماهي. وقد يشعل أحدهم النار بها. ليسوا كلهم هكذا. حرام. لكن أولاد الحرام كما قالوها لم يتركوا شيئاً لأولاد الحلال.

لن تسأل أحداً. فهم يبحثون عما يُسليهم ويطلق ألسنتهم، وإذا سألت سيجدها شبان وكبار ونساء مناسبةً لـ: خذ وهات وطق حنك (ثرثرة): سلحفاة بحرية أم برية أم برمائية؟ هل تتحمل كيس طحين أو تنكة زيت على ظهرها. كم سنتمتر تقطع في الساعة. من أسرع هي أم السحلية أم الفرس. ما لون عينيها هل تتكحل. لحمها يؤكل؟.. نعم يؤكل، ليس حراماً. ما طعمه، مثل الدجاج أم الفسيخ أم مثل شيبس الأولاد. ما سعرها، هل تباع..أين تباع، هل لها ثمن؟ هل فتحوا سوقاً للسلاحف بجانب سوق الطيور. هل تعُض؟ مم تخاف: من القطة أم الحية أم من نباح الكلب؟ ماذا تأكل.. ماذا تشرب: شوربة ماجي أم تتسلى بالفستق الحلبي؟

تعرفهم حسيبة: تعرف دواوينهم وطوابقهم وهذه أساليبهم وأسرارهم. لن تمنحهم فرصة للقيل والقال. تحبهم.. تحب ما يُحب فيهم، شهامة الشهم: أبو فيصل الوجيه الذي أنقذ ولداً من براثن أبيه في شارع السعادة، لأن الولد أصر على شراء لعبة فتمرجل عليه الأب الفالح، ووبخه أبو فيصل أمام الناس قائلاً له الأولاد أحباب الله ومن يؤذهم ويحرمهم عدو الله، والنساء القويات ومنهن من يسيّرن أزواجهن ويسترن عليهم ضعف حالهم، والأولاد النظيفين ممن أحسن

fb/mashro3pdf

أهلهم تربيتهم. لكنها تمقت رذالة الرذيل منهم. من يبصبصون على نساء غيرهم، ومن يتزوجون على نسائهم لغير سبب سوى الشخلعة والمنظرة وخراب البيوت. الذين يحسدون من أضعف حالاً منهم، ومن ترضى بنذالة زوجها وتقتيره على بيته، ومزاحمة الفقير على المساعدات، ومن يملأون الحارة بالزمامير والطخ (إطلاق الرصاص) في الأعراس، وبمناسبة ولد أخذ توجيهي (نال الثانوية) وولد طهّروه.

أحدهم في عمرها ولا تبوح باسمه لنفسها، سعى للزواج منها ما إن ترملت، بحجة أن امرأته مريضة وما هي مريضة لكن الشقا هدّ حيلها، وهو من عشرين سنة لا يعمل ولا يملك ما ينفق على بطنه وعلى سجائره، يتمشيخ ويعزم نفسه على العزايم والجاهات، ويثقل على أولاده بالطلبات. سعى إليها طمعاً ببيتها والقليل مما تملك: تقاعد المائة وعشرة دنانير من وزارة الكهرباء. صدّته وسمعت من ابنة جارتها مثلاً فصيحاً الوحدة خير من جليس السوء، رغم أن الفاضل لم يقصدها بغرض الجلوس معها. وقد أثلج صدها للعريس المتشبب صدر زوجته. حاولت هذه بعدما جرى، من باب رد الجميل توثيق علاقتها بحسيبة، فصدتها هي أيضاً، لأن الفالحة لا تدري أنها إذا أكثرت من زياراتها لي، فسيجدها الفاضل مناسبةً وسبباً كي يُعتّب على البيت كلما خطر ذلك بباله، بحجة السؤال عن أم أولاده ثم الاطمئنان عليّ. فَشَر (كذب وخاب ظنه). أم يوسف كبرت مقاماً

fb/mashro3pdf

في عيني جارتها أم عوني. وحاولت هذه أن تجعل جمعيتهم تساعدها، فرفضت قائلةً إنها لا تحتاج مساعدة ولا معونة وطنية.

استذكرت الواقعة القديمة، وأطل من ذاكرتها محيا أبو يوسف يتبسّم لها تبسّم المحب العفيف، وهي تطير هائمةً في المنام. اشتاقت له ومدت ذراعيها لتحتضنه وتمسك برأسه، لكنهما شقتا الهواء والفراغ. ثم تذكرت القُرقعة الخابية الملطوشة: أيكون أحد مدّ يده إليها وسرقها؟ هناك ناس تسرق الكحل من العين.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

9

تعرضت حسيبة للسرقة مرةً واحدةً، قبل ست سنوات في عزّ الصيف وعطلة المدارس. خرجت في النهار وعادت لتجد أن الغاز أبو عينتين، ومعه الجرة جرة الغاز قد اختفيا. خافت حينها أن ترجع لشقاء وابور الكاز. الجيران لم يروا أحداً يدخل ويخرج في غيابها. لم ينتبهوا. بعدئذ تبين للشرطة أن زعراناً (أشقياء) ليسوا من الحي، كانوا مع سيارة توزيع أسطوانات غاز، دخلوا البيت بحجة تغيير الأسطوانة القديمة بجديدة، فأخذوها بالفعل ومعها فرن الغاز. كيف دخلوا ؟ الباب الخارجي المعدني من معدن غير سميك (ألمنيوم مزدوج) تنساه أحياناً مفتوحاً، أما باب البيت الداخلي فلم تنس إغلاقه مرةً واحدةً. فيما دخل آخرون منهم بصورة اعتيادية لبيت آخر أهله فيه، قاموا بالمطلوب وخرجوا. أعادت لها الشرطة المسروقات بعد ستة أيام، بعد أن تكبد ماجد المعلم أصغر أبنائها شراء فرن وجرة جديدة لها، ولما حاولت بيع الفرن القديم دفعوا فيه سعرالتراب، فتبرعت به لأناس مستورين ومعه الجرة. طلبت من الشرطة رؤية اللصوص. قالوا إنه لص واحد من قام بسرقة بيتها. جعلوها تراه: أسمر نحيل في العشرين من العمر. ليس ذلك الشاب الذي كان بصحبة ابنة الداية.

fb/mashro3pdf

سحنته أليفة وقلة التغذية والتعتسة (التعاسة) بادية عليه، وليست له هيئة لص. سألته عن اسمه، فبدا الاسم أليفاً ، لكنه ليس من سكان الحي أو من حي مجاور.. وبّخته على ضعف شهامته، فقد قصد أرملةً بعُمر جدته، أخرجت من داخل عُبها (موضع الصدر) ديناراً مدّته إليه ومدّ يده ليخطفه، فمنعته الشرطة عن ذلك. من يومها وجارتها أم عوني تساعدها في تركيب أسطوانة الغاز. وقد لاحظت مع اختفاء السلحفة واستذكار السرقة القديمة، أن الحرامية تشجعوا وفَجَروا وأخذوا يسرقون في ساعات النهار، عند الظهيرة، عينك عينك. قالت لنفسها: أحسن. أحسن من السرسعة (الجزع) في نصاص الليالي.

فكرت بهذا وهي جالسة على طرف سريرها تدلّي ساقيها، وتتجه بأنظارها صوب باب الغرفة، تُتَمتم بأسى أن الكِبر عاطل (التقدم في السن سيء). وراثة، قالت لنفسها. أبوها وأمها عمّروا للثمانين، وماتوا تباعاً. يمكن أبو يوسف ناداني و لم أذهب إليه. لا أعرف وضع أقدامي في قبر مفتوح. تلاحظ حسيبة أنّ بين الناس في الحارة، من يستكثر بقاءها على قيد الحياة بعد رحيل رجُلها (زوجها). والشقا وراثة أيضاً.

لما أحنت رأسها وحانت التفاتةً منها إلى أسفل بين أقدامها، إذا بالسلحفة تقترب من قدمها اليمنى. شهقت، وبحركة لا شعورية

fb/mashro3pdf

امتدت يدها إلى حذائها، رفعته وهمت بضربها به عقاباً لها، كما كانت تهدد أطفالها حين يعودون من غيبة طويلة بعد اختفاء غامض غير مبرر، ويشتد قلقها عليهم. السلحفة زحفت من تحت الخزانة حيث كانت تختبئ، وهو ما خمنته واكتشفته حسيبة. وقد أراحها أنها تريثت ولم تسأل أحداً عنها، وإلا لَتَفضحَنْ من يسوى ومن لا يسوى عليها وعلى ضيفتها المفقودة. وبدل ضربها بالحذاء، تحسست حسيبة صدفتها، أول مرة، فوجدتها غريبةً خشنةً، وإن كانت أقل خشونةً من الليفة ومن جذع شجرة زيتون، وجذابة بحلقاتها المربعة والمستطيلة والمطوطة، كأن يداً رسمتها ونحتتها. نقرت عليها بإصبعها فإذا بها صلبة كالحجر، تنهدت وتمتمت: سبحان الخالق. شمت إصبعها فاستنشقت غباراً خفيفاً. نهضت وسارت أمامها ببطء وهي تتبعها إلى الباحة الضيقة. تأكدت أن الباب الخارجي مغلق. تركتها هناك "تلعب" وتتشمس، وعادت لتقطيع أوراق الملوخية، وفكرت في أنها لم تطعمها شيئاً، فسارعت لتقديم أوراق من الملوخية لها فردَتها على كيس بلاستيكي. من مثل السلحفة لا يأكلون ملوخية مطبوخة. وقد قضمت منها بعض الأوراق وتركت الباقي في ضوء الشمس وقد ترجع إليه. تخيلتها دجاجةً سمينةً منتفخةً. ثم رأتها خنفسةً كبيرةً متحجرةً، رماديةً وليست سوداء. وقبل أن تعود إلى الداخل فكرت في أن تدعو ماجداً وأولاده الثلاثة للّعب معها فهي مثل لعبة،

fb/mashro3pdf

وفكرت في أن الصغار يحسنون التعامل مع هذه الكائنات، يفهمون عليها أفضل من عجائز مثلي، الصغار يفهمون على بعضهم حتى لو لم يكونوا من الجنس نفسه، حتى لو كانوا بشراً وحيوانات، وإذا أحبوها ليأخذوها معهم، ولو أن ماجداً ربما استغرب ورفض وجودها معي في البيت. ربما فكر في أني جننت، وقد يتفهم الأمر. حُر. قلما أفلحت رغم حبها الشديد له، في التنبؤ بردود أفعاله. فيه شيء باق من طفولته: طفل بشنبات وصوت جهوري. فكرت في أنه لو سمع ما تتحدث به إلى نفسها قد يزعل. وقالت الزعل كثير هذه الأيام .كل الناس على نقرة (انتظار لمسة.. كي ينفجروا)، يزعلون من بعضهم على شيء وعلى لاشيء.

fb/mashro3pdf

10

تنادي على جارتها أم عوني، فتطل هذه حاملةً المفك وتقول لها: غُزي كم مرة ودوري بالمفك حول كل غزة. ثم تقول إنها تطبخ ولا بد أن تسرع لإنجاز ما هي فيه، لأن أبو عوني سيعود باكراً اليوم. أبو يوسف لم يعد يرجع للبيت، لا مبكراً ولا متأخراً، لم يعد يعرف الطريق إلى بيته، أو كأن أحداً يمنعه عنه، فما الذي تنتظره وماذا ينتظرها، وماذا ينفعها أن يمتد بها العمر. الأولاد يأتون عندما يأتون زواراً، ولا يلبثون أن يرجعوا مهرولين إلى بيوتهم. مع ذلك تخطف الجارة رجلها، تأتي إليها بعد أن توصي ابنتها بمراقبة ما على النار. يحدث ذلك كثيراً في يوميات الجارتين. فلطالما خاطبتها حسيبة بمودة مفرطة: ليس عندي بنات.. أنت مثل ابنتي، فتجيبها أم عوني: أنها نطّت (قفزت) عن الخامسة والخمسين، وقد زوجت ولداً وبنتاً وباتت جدة، وكبيرة على أن تكون بنتاً لها. وقد مازحتها مرة: بنتك، لكن على أي دين؟ وهو ما لم تعرف حسيبة جواباً عليه، فأحاطتها أم عوني المسيحية بذراعها قائلةً: مثل أختين. وهنا ضحكت أم يوسف: أختين على أي دين؟ فأجابت الجارة: على دين المحبة والنية الصافية. توافق حسيبة معجبةً بفطنة جارتها، مع اعتراض

fb/mashro3pdf

طفيف بأن الجارة، التي حافظها، ما زالت صبيةً متوردةً، وتستذكر أنه كانت لها أخت وحيدة أكبر منها (فاطمة)، ماتت في الهجرة قبل أن تتزوج، وتراها دائما عروساً مثل البدر تهفهف بثوب أبيض وتركض نحوها ولا تصل. الحي أفضل من الميت تقول الجارة، تضحك حسيبة مُنكرة عليها ما قالت: غداً أموت وتقولي الحي أفضل من الميت. بعيد الشر (ليكن الشر بعيداً..). وتكمل: نَفَسِك وحِسّك علينا في الحارة لا يُثمّن بثمن. الجارتان متجاورتان من سبعة وعشرين عاماً أو أكثر. تفرح الواحدة في عيد الثانية، وفي كل مناسبة سعيدة للأخرى. لم ينشب بينهما خلاف، وإن تباعدتا بعض المرات بحكم انشغالات إحداهما خاصة أم عوني بنت الحصن وأم البنت والولدين.

تسألها الجارة إن كانت ثقبت الكرتونة فتجيبها بأنها كانت تهم بفعل ذلك. تبادر الجارة بطعن جوانب الكرتونة وسقفها بعدد من الثقوب. أم يوسف تداعبها: قلبك قوي، فتجيبها بأن الأمر لا يحتاج لقوة قلب، بل لتسديد خاطف حتى لا تنطعج الكرتونة (تنثني للداخل).

تلاحظ الجارة بعدما أنهت ما كانت فيه، أن السلحفة تتحرك في الباحة، تهش لها وتهم بمناداتها ثم تبدي حذراً منها. تدخل إلى الغرفة مع حسيبة التي تروي لها كيف اختفت، قلقت عليها و لم تعرف أين

fb/mashro3pdf

يمكن أن تجدها، لتراها فجأةً بعدئذ تسعى من أسفل الخزانة. تقول الجارة: جيد أنها خرجت ولم تنم هناك ليلة أو اثنتين، لكن مش عارفة. تقول دلالةً على حيرتها. تسألها حسيبة عما يحيرها، فتجيب بأن تربية الطيور والحيوانات ليست سهلةً، وتحتاج مواقفة (الوقوف للمتابعة والاعتناء). توافقها حسيبة: فكيف بتربية سلحفاة يعلم الله من أين أتت.

تدخل السلحفة تدب بينهما مثل طفل بين أهله في بيته، تشهق الجارة وتتمتم بكلام غير مسموع، تتابعها بأنظارها مع حسيبة وهي تتجه إلى مأواها وتغيب ببطء فيه، فتنصح الجارة بوضع أعشاب لها كفراش أو لأجل النظافة أو.. طعاماً لها.. كما تريد، وتبدي استعدادها لإحضار ما نصحت به. الجارة ما زالت على فضولها تجاه المخلوقة الصغيرة، ولا تعرف كيف تشبع هذا الفضول، ومتى يمكنها القول إنها تعرف في السلاحف.

ما إن غادرت جارتها حتى خرجت حسيبة، ومشت إلى دكانة قريبة وطلبت من صاحبها، أن يتدبر ولد كومة حشيش لها وتشتري للولد عصير. عشب أخضر لا جاف، فهي لا تريد أن تشعل ناراً. لما سألها عما ستفعله بالحشيش الأخضر، صدمها السؤال إذ تأكدت أن سيل الأسئلة لن يتوقف. أجابته بنبرة قوية أنها ستطعم ثوراً، فأسكتت كلمة "الثور" السائل. في طريق عودتها فكرت في أن السلحفة قد

fb/mashro3pdf

تكون اختفت مع خروجها، فهزت رأسها بتصميم: سيكون ذلك أحسن. وكادت تلعنها، لكنها في اللحظة الأخيرة أشفقت عليها. ما دامت عندي وجب أن أحميها، وإلا لماذا جئت بها.

fb/mashro3pdf

11

لم تختفِ السلحفة هذه المرة. وجدتها في وسط الغرفة منكمشةً على حالها، تنتظرها مثل ولد مؤدب صبور.. "ما تكون وسخت". سارعت وفرشت السطح السفلي للكرتونة بالحشائش. دعتها بحركة من يدها إلى الدخول. تحركت السلحفة ولاحظت حسيبة أن المكان تحتها وسط الغرفة ظل نظيفاً. عبرت إلى مأواها واستقرت على العشب. تطلعت حسيبة إلى رأسها الصغيرة وانتظرت وقتاً كيما ترفعها وترى عينيها، سألتها: منيح؟ (جيد)، فلم تجب. كررت السؤال مشفوعاً بابتسامة، فهزت السلحفة رأسها ولمع بريق، أول مرة، في عينيها الناعستين، بريق الحياة والاستجابة. تنهدت حسيبة، فالصغيرة تفهم، وقامت وأحضرت لها خبزاً وماءً وأوراق خس. وشعرت بضغط الجَيَشان الصامت لمشاعرها مستذكرةً خرافاً وجدياناً صغيرةً. تذكرت إذ انتابها دوار خفيف، أنها أطعمت ضيفتها و لم تُعدّ طعاماً لنفسها. اتجهت بتثاقل إلى فرن الغاز، وهيأت وجبة الملوخية فيما هي سارحة، وأخذت تتناول طعامها ساهيةً ساهمةً دون أن تتذوق طعماً له. وقامت لتتمدد (تضطجع) فأخذتها سِنة من النوم. لم تر منامات: لا أحد مات لا أحد وُلد، لا حياً غاب ولا غائباً رجع، لا أحد جاع ولا أحد شبع. لا امرأة تغني ولا طفلاً بكى. لا قمر

fb/mashro3pdf

غاب ولا شمس طلعت. لا شيء غير سديم النوم الخاطف، وقلق خفي يقرص القلب، وشعور غريب بأنها نسيت أمراً هاماً أو غفلت عنه، ولا تدري ما هو على وجه التعيين. ولا شيء غير دق على الباب الخارجي، حسبته أولاً من أضغاث أحلامٍ لم تحلمها ثم تيقنت منه، وقد تدرب الجيران وأهل الحي أن لا يدقوا عليها، إلا إذا كان هناك شيء مِحرز (يستحق)، ولو لم تنبههم لما توقفوا عن المِرواح والمجيان (الذهاب والإياب)، خاصةً قليلات العقل اللواتي يطلبن حفنة ملح والدكانة جنب دارهم، أو يطلبن كرارة خيطان أو إبرة لا تعرف أين خبأتها قبل سنتين، وعليها أن تقلب الخزانة بحثاً عنها حتى لا تشتري صاحبة الحاجة إبرة.. عندهم سيارة وما عندهم إبرة، وحتى لو وجدتها ستقول من طلبت: لا.. هذه صغيرة، لا تنفع. أريد واحدة أكبر.

قامت مذعورةً تضع شالاً على رأسها، وفي طريقها سمعت جلبة أطفال فهدأت خواطرها، وفتحت لعائلة ابنها ماجد. هو وزوجته والولد والبنت. لفحتها رائحة الابن ورائحة أبيه فيه. شق ماجد طريقه بعدما قبّل يد أمه مرتين، وقبّل رأسها وسألها عن صحتها. فاجأته الكرتونة الكبيرة فانحنى عليها كي يحملها ويلقي بها في الخارج باحتسابها فارغةً متروكةً، ولما شعر بثقلٍ داخلها سأل: ما هذا..أرنب؟ فسارعت للقول بصوت جاء مبحوحاً: قُرقعة. الدهشة

fb/mashro3pdf

عقدت لسان ابنها الشاب قبل أن يجمع أفكاره ويسألها: قرقعة.. عن جد؟ (بجد). زوجة ماجد.. كنتها حافظت في الأثناء على ابتعادها، ومجاملة الحجة التي لم يتسن لها الحج بالسؤال عن أحوالها. لم تجبه أمه في الحال من أين، وطلبت منه أن يفتح عليها. فتح ودهش مرة أخرى بعدما لاحظ أنها ضئيلة، أصغر مما رآه مرةً من سلاحف في حديقة للحيونات. الزوجة قامت لتوزيع الأغراض: مواد تموين جلبوها معهم من مؤسسة استهلاكية. سألها بعدما عاد إليه الانشراح: من أحضرها ومتى؟ فأجابته بأنها عثرت عليها صباح أمس في الطريق. خافت أن يدهسها باص أو يشعل ولد شيطان النار فيها، فحملتها إلى البيت. الزوجة التي كانت تسمع محتفظةً بحيادها، تيقنت هذه المرة من غرابة أطوار حماتها، وتخيلت ماذا يمكن أن يحدث لو أنها تقيم معهم. أما الابن فدعا طفليه لرؤية ما لم يروه من قبل، قائلاً لنفسه: سلحفاة؟.. شيء جديد. آخر ما يخطر ببالي. وضحك مرة أخرى للمفاجأة الغريبة، فيما أمه تسأله هو الأولاد إن كانوا تناولوا طعام الغداء.

الطفلان تهيبا مما رأيا، وسألا: ألا تخرج؟ فأجابت الجدة بإنها تخرج على كيفها على هواها.

لم يمكث الابن طويلاً بعد أن شرب الشاي، اطمأن على صحة الوالدة وخرج لملاقاة أصدقاء له قائلاً إنه سيعود في الليل لينام. ولم تلبث الزوجة بصحبة ابنة السنوات الأربع، أن خرجت إلى بيت

fb/mashro3pdf

أقارب لها، وبقي الطفل ابن السادسة بصحبة جدته (أملاً باللعب مع ابن الجيران). الجدة أحضرت له بسكويتاً تدخره لمثل هذه المناسبات، فأيقن الصغير أن قراره بالبقاء كان صائباً ومثمراً. أخذ البسكويت خطفاً وقَصَد الجيران.

بعد منتصف الليل عاد ماجد يتمايل، وعلى سحنته آثار السهر مع أصدقاء قدامى وجدد. سهت حسيبة عدة مرات سهواً متقطعاً في انتظار عودته. أبلغته أن الولد التحق بأمه وأخته، عند النسايب (الأنسباء). ماجد سألها: ما الذي ستفعلينه بالسلحفاة؟ وكانت ظنت أن أحداً لن يعود لإلقاء هذا السؤال عليها. لكن ضناها من حقه قول كل ما يريد. أخبرته بأنها سترّبيها فحسب. ماجد قال إن السلاحف الصغيرة قد تسبب أمراضاً، وهو ما عرفه من أصدقائه المتعلمين مثله، فتنهدت قائلة بلا تردد: المرض في كل مكان، اذهبْ إلى المستشفيات والدكاترة وسوف ترى كم هناك من مرضى ومن موجوعين. الصغار يمرضون أكثر من الكبار (الصغير هو كل من يصغرها سناً، لا الأطفال بالذات). وقالت بنبرة واثقة: الأمراض تصيب الكائنات جميعها، أبعد الله عنك وعن بيتك كل مرض. تحدثت بهذا وتخيلت السلحفة تسمع ما يُقال. أحبت لو أنها تسمع، وتمنت لو أنها تفهم ما يُقال إذا كانت سمعت. لكنها سلحفة.

fb/mashro3pdf

أدرك ماجد أن أمه متعلقة بها، ولا تنفع معها التحذيرات. وقد أعجبته ملاحظاتها دون أن يبوح بما فكر به، قال: الاحتياط واجب يا حجة، كعادة الأبناء الكبار الذين يتخلون عن مناداة من أنجبنهم بـــ يا أمي ويخاطبونها كالآخرين، وكمخاطبة أية سيدة متقدمة في السن: يا حجة. وافقته الحجة على الاحتياط، وسألته إن كان يحتاج غطاءً إضافياً، فأجابها بأن الزرقاء دافئة مقارنة بعمّان، قالت له عمّان باردة وليس لها أول من آخر. كانت أقامت سبع سنين في مخيم الحسين بعد الهجرة، وهناك تزوجت وأنجبت يوسف، قبل أن تنتقل العائلة إلى الزرقاء مع أب كهربائي طالما أضاء البيت بنور محياه وكرم سجاياه. وسألها إن كانت الصوبة (المدفأة) تشتغل عندها، فأجابت بأنها لم تُشغّلها بعد. وقبل أن ينسى وينام أخبرها أن السلاحف تبيت بياتاً شتوياً، وهو ما تداول بشأنه مع أصدقاء السهرة. استفهمت منه عن المقصود بذلك، فاجتهد بأنها تنام طويلاً، وقلما تخرج في الشتاء. فقالت: أحسن، الشتاء على الأبواب. ثم نام في الداخل من تعب التنقل في هذا اليوم، ونامت قريرة العين بعدما ابتهجت بالوَنَس (الأنس).

في ساعة الفجر قامت للصلاة وأدّتها على عجل، مخافة أن يستيقظ ابنها في الغرفة الثانية على حركتها. لم يستيقظ.. دخلت وردت طرف اللحاف عليه. واستغربت كيف ينام بكل هذا العمق، وكأنه

fb/mashro3pdf

أمضى اليوم في الحراثة. وفكرت أن أولاد اليوم يكثرون من النوم. السلحفة تقدمت وتحركت ببطء إلى الغرفة الثانية. تركتها تتحرك. قامت حسيبة بعدما انتهت من الصلاة بتدويرها إلى باب مأواها، أدخلت لها أوراق خس، وشيعتها بنظراتها الحانية فهزت هذه رأسها. وتركتها لتغفو إلى أن ينبلج ضوء النهار.

fb/mashro3pdf

12

ماجد ابن الثالثة والثلاثين.. آخر العنقود، يشبه أمه في سمرته ومزاجه الطلق، ويشبه أباه في الصوت، خشونة الشعر، خضرة العينين وسماحة النفس، لم يزعجه وجود السلحفاة. شعر مثلما شعرت أمه في البدء بالإثارة، لوجود كائن غامض نادر الوجود ومسالم، لم يتوقع مصادفته وجهاً لوجه في أي مكان، فكيف في عقر بيته العائلي الأول. وقد قال لنفسه حين خرج للسهرة: إن بيتنا بيت أمي أصبح بيتاً للسلاحف. ولم يستطع أن يتبين معنى لذلك. لم يفلح في الحُكم إن كان ذلك جيداً أم سيئاً، مُريحاً أم مُقلقا. سنرى ذلك بعدئذ. أبدى تحوطه منها مخافة وقوع سهو أو إهمالٍ، في التعامل مع المخلوق الغريب يؤدي إلى وقوع ضرر. حدس حسيبة وخبرة السبعين حولاً مع كائنات الطبيعة، أنبأتها بأن لا ضرر ولا من يتضررون من إيواء كائن ضعيف، يبقى على ضعفه مهما نما وتضخم (تحدس بذلك وتتمناه، وكانت بالأمس تخشاه).

مائة سنة، أو مائتا سنة أيضاً، قال ماجد في الصباح وهو يفتح الكرتونة على الضيفة المقيمة، وقد كور شفتيه للتصفير لها دون استجابة ملحوظة منها سوى التحديق به، وهو ما لم يكن يطيقه.

fb/mashro3pdf

عم تتحدث؟ سألته الأم، عن العمر الذي قد يمتد بها، أجاب. أدهشتها المعلومة: عن جد.. 200 سنة؟ فردّ بالإيجاب. أربكت المفاجأة حساباتها قبل أن تشرع بها: إنها بحاجة ليس لعمرٍ واحد إضافي، بل لعمرين اثنين على الأقل، كي.. كي ماذا؟ كي تُمضي مع السلحفة حياتها. مع ذلك أسعدتها المعلومة من طرف خفي، فلطالما تفاءلت بكل ما تطول إقامته على الأرض ويمتد به العمر، ولو كان ثوباً أو كرسياً أو ملعقة، فما بالك بالمخلوقات. هذه الأيام كل شيء سريع التلف، سرعان ما يُبلى ويتقادم. كل شيء عمره قصير. وبما أن التحكم بالعمر ليس بيدها، فقد سعت لإرباك ماجد كما فعل معها حين قذف معلومته، قائلة بتسليم: الأعمار بيد الله.

دعا لها ماجد بطول العمر وقبّل رأسها، وخلافاً لما فهم فقد كانت تقصد أن السلحفة طويلة العمر ربما تموت قبلها، و لم ترغب في توضيح قصدها له حتى لا يحسب أنها طامعة في الدنيا. سألها مداعباً وإن بدا على نبرته قدر من الجد: هل نأخذها معنا ليلعب معها الأولاد؟ أجابت و لم تفلح في إخفاء حشرجة صوتها: خذوها. خذ ما تريد، لا أريد شيئاً. لا أريد شيئاً من دنياكم. كانت خرجت عن طورها، احتدت دون قصد، وإن حافظت على نبرة صوتها المحتشمة.

قال ماجد: لا تزعلي، لن نأخذها.

fb/mashro3pdf

لم تكن غاضبةً، بل مكسوفة الخاطر. كانت تتلمس ما تُغدق به عليهم، وكلما أبدى ولد عنايةً أكثر بها زاد حزنها، وحتى شعورها بالذنب، فالأصل عندها أن تعتني هي بهم. لكن لماذا يفكر بالسلحفة؟ عندهم ما هو أحسن منها. لقد وجدتها وهي لي. ليس صدفة إنها كانت في طريقي أنا، وفي شارع لا أعبره كل يوم. لماذا حط عينه (وقع اختياره) عليها.

سألته عن شقيقه الأوسط طه السائق، أجاب بإنه لا يراه، فانقبضت. سألته عن أحواله، فلم يجبها بما يهدئ روعها، حتى قال لها إن وضعه ليس سيئاً، لكنه يرغب في "الابتعاد". هو هكذا. شرح لها أن الناس كلهم هكذا هذه الأيام. احتجت: مالنا والناس. قال إن الجيران، الباب للباب، لا يعرفون بعضهم بعضاً في البناية الواحدة. فقالت إنها سمعت شيئاً من هذا ولم تصدقه، وسوف تُصدقه الآن. عمّان لم تكن هكذا... وتذكرت أيضا أنها لا تخالط من حولها، فسكتت محتارة.

وصول الطفلين مع أمهما، وضع حداً للحوار الكئيب. الصغيران سارعا بطلب رؤية سلحفة النينجا كما أسمياها. افتحوا عليها، قالت لهما التيتة الجدة. فتحا ونثرا أمامها من كيس شيبس كبير اشترياه لكليهما، ورغب الصغير في أن تقاسمهم السلحفة إياه. قامت أمهما لتهيئة طعام الإفطار وغلي الشاي. السلحفة خرجت تزحف في

fb/mashro3pdf

الغرفة ثم في الباحة، وراء رقائق بطاطا ينثرها الصغيران. توقف الطفل الكثير الغلبة، فرفص وصرخ أمام رأسها لإخافتها، وارتد بوجهه محاذراً ردة فعلها فكان أن هزت برأسها، ما جعل الصغيرين ينتفضان ثم يتضاحكان باندهاش. سألا الجدة: لماذا هزت رأسها، ماذا تريد؟ حسيبة بداعي تغطية الحرج وضعت راحة يدها على فمها، تخفي ضحكة انفلتت منها. كانت تتأسى لحالها، وقد وضعت نفسها أمام أسئلة صعبة، منذ التقطت الحزينة من طريقها. تدخل الأب في الوقت المناسب قائلاً لهما: مجرد حركة.. إنها تلعب معكما فحسب. اللعب إذن. ماذا يريدان غيره. هيا بنا نلعب. تشجعت البنت ووضعت كيس البطاطا على صدفتها، فأفهمهما الأب أنها تحمل ما هو أثقل من ذلك. اقترح الصغير وضع جهاز التلفزيون على ظهرها، فوبخه الأب مع نصف ابتسامة: سأضع الخزانة فوق رأسك، ما رأيك؟ خاف الولد لهنيهات ثم استجمع روح التحدي: سأضع السيارة على رأس بابا. كركرت أخته ضاحكة بحياء، ووبخت الأم ابنها: أنت بارد وجه. انكمش الولد وقد أدرك أنه تجاوز حدوده، وسرعان ما عفا الأب عنه وربت على شعر رأسه، فلم يتعد الأمر مبارزة ودية بين ولد مرح وأبيه.

واصل الطفلان اللعب مع السلحفة: باحتراس وتهيب من الطفلة، بتحفز وتحدٍ من طرف الولد، وقد استدار هذا وراءها. فرفص وحزم

fb/mashro3pdf

أمره وحملها بيديه من أطراف صدفتها. ثقيلة، قال وبالكاد رفعها عن الأرض ثم سقطت من بين يديه. دعا أخته أن تفعل مثله، فترددت. الجدة لاحظت ما جرى وخافت على السلحفة أن تموت وليس أقل من ذلك.. أبوه نهره: لا تحملها. قال الولد: لن أحملها ..ثقيلة. كانت قد ابتعدت عن الطفلين. تبعها الولد وجرب أن يقلبها على ظهرها. وجدها أثقل من قبل، وخاف أن تنتقم منه فترشق لساناً من نار نحوه، فتركها وخرج للعب. مشت أخته وراءه فدعتها الأم للعودة، وطلبت من الولد أن لا يبتعد وأن لا يتأخر. اللعب للأولاد، أما الصغيرات فيلعبن متى سُمِح لهن بذلك بإشراف الأمهات الحارسات. قامت الحجة لتغلق الباب فسبقتها كِنّتها متجهةً إليه، وهي تلهج: استريحي يا حجّة.. لكن الحجة حملت نفسها على النهوض، كي تعيد السلحفة التي اقتربت من باب الخروج وأخذت تناديها: دا.. دا وتضحك خجلة، فليس لديها ما تخاطبها وتناديها به سوى بمناداة الأطفال تلك، خاصةً أمام ابنها الرجل وكِنّتها. لو نغّمت بصوتٍ آخر لربما ضحكوا منها، وهذا آخر ما ينقصها.

سألها ماجد بعدما أدخلتها إلى مأواها عن صحتها، وما إذا كانت تراجع المشفى الحكومي لدواء الضغط والمعدة، فقالت إنها تفعل وأن النتائج كما هي فضغطها مرتفع: لا تحفظ الأرقام، لكن حالتها لا تخوّف (تخيف). أما حالة معدتها فمستقرة على وجع خفيف. وسألها

fb/mashro3pdf

عن نظارة النظر فقالت إنها لا تلبسها، ولا حاجة لها بها. حسيبة قلما تقرأ صحفاً. إذا فعلت فهي تقرأ صحفاً قديمة منذ أسبوع أسبوعين شهر، وتقع فيها على الجديد من أخبار وموضوعات. لا تستهويها، والأحرى لا تعنيها كثيراً صحيفة اليوم نفسه، وقد تبيّتها عندها يومين وثلاثة أيام ثم تعود إليها. وهو ما يحيّر الجارة التي تحضر لها ما يتبقى من صحف عندهم، فتقرأ ما تيسر منها. تقول لجارتها إن لا فرق، مع أن هناك فرقاً.. فحسيبة تعزف عن المشاركة في "دوشة" كل ما هو جديد. ترغب في أن تتأخر عنهم كي لا تأخذها الانفعالات. أما الخبر القديم فتأخذ علماً به بأقل انفعال لكونه قديماً. يريحها أن غيرها يسبقونها إلى حيث يريدون. بذلك يتركونها في حالها وهذا جل المراد.

والتلفزيون شغال؟ سألها، فقالت إنها لا تفتحه إلا كل وين ووين (أوقات متباعدة). استغربت الكنة. لم تقل لهما إنها فتحته في رمضان الفائت قبل شهرين، وإنها تفرجت مع الجارة على "باب الحارة" وأعجبها، ولم تلبس حينها النظارة التي تحتفظ بها. لو سألتها لأجابت. يعرف ماجد أنها تسمع أخباراً من الجمعة للجمعة (الأسبوع للأسبوع)، وعندما يكون هناك ما يستحق أن تسمعه. قالتِ العبارة الأخيرة من باب المداراة. الأخبار تثير مللها وحيرتها، لأنها عندها كلام وصور وليست أخباراً كأخبار الراديو.

fb/mashro3pdf

شغّل ماجد التلفزيون وأخذ يصغي إلى الأخبار، لاحظ أن أمه تضايقت وانكمشت. أغلقه. في هذه الأثناء شطفت الكنة الباحة، فشكرتها الحماة على صنيعها. وسألت الحجة عما تريد للغداء فأحالتها إلى ماجد، فاقترح هذا أن يشتري بيتزا، الاسم أثار استغراب الأم فشددت عليها الكنة بأنها خبز، وكما المسخن خبز وبصل وزيت، فلنأكل خبزاً مع جبنة وفليفلة وبندورة. لا ترغب الحجة في طعام من مطعم، فليس في أكل المطاعم بركة.

غادروها الجمعة عصراً بعدما أكلوا وخلفوا وراءهم رائحة غريبة لبقايا الطعام، غير أن البقايا جاءت من حظ السلحفة كما تفاءلت حسيبة حين تم فتح سيرة الغداء. في الوداع سألها ماجد متهكماً: سلحفتك ذكر أم أنثى؟ فضحكت أمارةً عن حيرة وتغطية على تفاجُئها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

13

الابن ترك الأم تضطرب اضطراباً أقرب إلى العبث: ذكر أم أنثى؟ لم يخطر ببالها السؤال، لم تجد الآن ما يدفعها لمعرفة الجواب، فما الفرق.. ما الفرق؟ هل تُلبسها فستاناً، تُسرح لها شعرها، تُلمع لها صدفتها وتشتري لها حذاءً أحمر، إذا كانت أنثى؟ تُلبسها قميصاً وبنطلوناً.. تسجلها في المدرسة الحكومية وتعطيها مصروفاً وسندويتشاً، إذا كانت ذكراً ؟ هل تبيعها بدينارين إذا كانت أنثى، وبأربعة دنانير إذا كانت ذكراً ؟ وماذا ينفع الحيوان الوحيد المحجوز في كرتونة إن كان ذكراً أو أنثى؟

ما أكثر أسئلة الناس وتمحّكهم، حتى ماجد سامحه الله يسأل. يتحججون بالمشغوليات.. يزعمون انشغالهم الدائم، مع ذلك يجدون وقتاً لطرح أسئلة لا تودي ولا تجيب (لا قيمة لها). هل أسميها باسم بنت أو اسم ولد، حتى يرضى الناس ويقتنعوا وينادوها به، وأصبح أنا في الحارة بدل أم يوسف، أم السلحفة القُرقعة فلانة..؟

تهدئ نفسها بأن ماجداً لم يقصد شيئاً وأنها كبّرت القصة. الصحيح كبّرتها متعمدةً كي تطلق خيالها وتتلهى قليلاً، وإلاّ بماذا تتسلى. أم يوسف تفارقها أو تأتيها أحياناً روح الدعابة في الوقت

fb/mashro3pdf

غير المناسب: فحين يكون الظرف ملائماً للمزاح، تتجهم. لا يعجبها المزاح فتسرح بعيداً وتبدو متجهمة. ويتولاها مزاج غريب بالرغبة في المداعبة، في الوقت الصعب عندما تقع مشكلة ما. وتمسك نفسها عن ذلك عن المزاح، بصعوبة.

قامت وجمعت بقايا الطعام، فتحت عليها فسارعت السلحفة للخروج. كانت "على الباب". تركتها تخرج وحملت البقايا إلى الباحة، لكن ليس قريباً من الباب الخارجي، وهناك أخذت تلتهمها ببطء وبصمت. مثل أكل العجائز، قالت حسيبة. ثم لاحظت: يبدو عليها تحب البيزا (كذا لفظتها) مثل أطفال وصبايا وشباب اليوم. كادت تقضي على البقايا حين وثبت من على السور إلى الداخل، قطة من قطط الحي، القطط المحترفة في استلال ما يقيم أودها. اقتربت من سلحفة لا تأبه بزائر الغفلة وواصلت "عملها". القطة الصغيرة اغتاظت مرتين، مرة من حرمانها من حصتها، ومرة من تجاهل الكائن الغريب لها. ناورت القطة واستدارت ومشت من ورائها فلم تحرك السلحفة ساكناً. عادت تقف قبالتها متحديةً والسلحفة "ليست هنا". زمجرت القطة ومدت مخلبها لتنال من رأس السلحفة أو تلتقط شيئاً. لم تفلح سوى في دفع غريمتها لسحب وإخفاء رأسها داخل صدفتها، وهو ما أثار خوف القطة التي استدارت وخبطت بقدمها خبطة واحدة على ظهر السلحفة. وهذه بالكاد تحركت على وقع

fb/mashro3pdf

الضربة. فوجئت القطة بمتن صلب لم تصادف مثله، مع القطط والكلاب والفئران والسحالي، ارتدت للوراء وأحنت رأسها وأخذت تبحث عن مخرج للهرب، سرعان ما وجدته في الوثب العالي على السور، وحسيبة مبهورة الأنفاس.. تراقب دون تدخل.

أعجبها ما رأت. أعجبها أن ضيفتها لم تهتز، لم تضطرب، لم تهرب. وأنها ليست من النوع الذي تأكل القطة عشاءه. لم تستغث.. وبأي صوت كانت ستستغيث لو أرادت؟ لا صوت لها. فكرت الحجة أن بوسعها تركها منذ اليوم في الباحة بلا خوف عليها. على القطة الصغيرة الآن أن تخبر، إذا كانت أنثى، صويحباتها بما جرى لها عصر هذا اليوم في دار أبو يوسف. إذا خجلت من إخبارهم، عليها - على القطة - أن لا تُعتّب باب الدار (تجتاز العتبة) وتطلق مواويلها الممطوطة الطويلة في أنصاف الليالي. وإذا كانت القطة ذكراً فلتدرك أن ذكورتها لا تنفعها. مثل رجال لا تنفعهم ذكورتهم في شيء ولا يفلحون في شيء. تمنت لو أن ماجداً وأولاده رأوا كيف صمدت السلحفة: يا جبل ما يهزك ريح.

حسيبة حملت كرسي بلاستيك، لتجلس في الباحة قبل أن تغرب الشمس عليها في غرفتها، فلو غربت وهي في الداخل لأظلمت نفسها، ولبقيت مظلمة حتى بزوغ شمس اليوم التالي. جلست مثل ضيفة على نفسها لا عمل لها، وأخذت تراقب الصغيرة هناك عن

fb/mashro3pdf

كثب وتأنس بأصوات أولاد الجيران. حسيبة تسحرها أصوات الأطفال من بُعد. كصوت عصافير على شجرة عالية. كأن الصوت يأتي من الماضي، من سعادة انطفأت.. من أحلام تبددت، من طفولتها الغائرة. أما من قُرب فـــ.. يا لطيف. لا تُطيق صياحهم، لا تحتمل شيطنتهم، تنرفزها مشاكساتهم. تكفيها أصوات تضج في رأسها ليل نهار، لا تعرف مصدرها وتتعب من دويّها وأصدائها. السلحفة إذا كان لها صوت فهو مكتوم مثل صوت رضيع. ربما تتحدث مع أهلها، مع من هم من جنسها أما معي فلا تنطق. لا أعرف كيف أناغيها. ولا ماذا يعجبها من أصوات.

تعطش حسيبة فجأةً، فلم تشرب مع أولاد ماجد ما شربوه كلهم، من سائل أسود (تعرف اسمه) شربوه مع الطعام الذي أحضروه. تحس بجفاف، تعطش قليلاً ولعل عطشها، قالت لنفسها، رسالة من السلحفة الفقيرة بأنها عطشانة لم تشرب قطرة ماء من البارحة. سأظل أنسى حتى يتذكرني الموت. ماجد وأولاده يُنسّون اللي (مَن) عمره ما نسي. تهنأ بوجودهم.. تشعر بطعم العيد في روحها، لكنها تضطرب. نظامها المعهود والهش يختل عند حضورهم. لا تعرف السيطرة على شيء. يجعلون منها ضيفةً في بيتها. يخجلها هذا الاضطراب أمام أحب الناس إلى قلبها، ولا تدري تفسيراً له. بعد

fb/mashro3pdf

أن يحلوا بينها بقليل، حتى تبدأ تفكر متى يغادرون، وما أن يغادروا حتى تحل الوحشة عليها، وتشرع في انتظارهم من جديد.

تضع الصحن المعدني المجوف الذي خصصته لها أمامها وقد امتلأ بالماء. وضعت السلحفة نصف رأسها داخل الماء وأخذت تشرب. صوت ارتشافها للماء على خفوته أسعد حسيبة. أسعدها أن صوتاً بالكاد يُسمع يصدر عن حركة لها. وفكرت: سأحمّمها غداً إذا لم أنسَ. لم لا؟ يحتاج الأمر لسكب زجاجة ماء عليها، وكان الله بالسر عليماً. أكيد أنها لا تحتاج إلى ليفة وصابونة وبشكير. سأفعل ذلك في الظهيرة تحت شمس الزرقاء، فقد تبرد الحزينة و.. قد لا تبرد، الاحتياط واجب كما أوصى ماجد.. وإذ بدأت تعتم شيئا فشيئاً، فقد اقتربت السلحفة من قدمها بعدما ارتوت بنصف ماء الصحن. فكرت أن اليوم كان طويلاً ولم يكن سيئاً. بقي أن تصلي مرتين، وبينهما تتناول لقمة وتشرب شاياً قبل أن يدركها النعاس. نقلت السلحفة إلى مأواها المعتم. حطت بسكينة وما أن حاولت إغلاق الكرتونة عليها، حتى صدت السلحفة المحاولة بطرف جرمها. نقزت حسيبة "مش قليلة" وفكرت أنها قد تفعل ذلك معها قد تحتك بها بعنف وعدوانية، واقتنعت أن لا خوف لو جعلتها تنام خارج مأواها. سوف تأذن لها. غير أنها لم تخرج.. شاءت الخلود إلى سكينتها وباب مأواها مفتوح.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

14

من حسن طالع حسيبة أنّ النوم يوافيها دون عناء. وإلا ماذا بوسعها فعله، لو أن النوم يفارقها وتلبث وحيدةً في العتمة بين أربعة حيطان، وفي الفضاء شبه المعتم على ضوء نواسة تتمايل أخيلة وتتحرك ظلال. نومها خفيف، سريعاً ما تستيقظ عند سماع أقل حركة، وسرعان ما تنام بعدئذ.. تنام نوم التسليم، ويسميه أحمد "نوم عصافيري". أحمد هو أبو يوسف نفسه. كان نوم أحمد ثقيلاً كمن يسقط في بئر. اشتاقت لاسمه الأول المجرد، وكانت تناديه به أيام الشباب قبل خمسين سنة..كان من أبناء المخيم نفسه دون أن يكون من أبناء الحي، أو جاراً قريباً لعائلتها. لطالما رأته في طريقها إلى مشغل التدريب على الخياطة. شابة صغيرة لكنها تفهم. هو أيضا فتى وإن كان يكبرها بسنتين. نظرة ونظرتان والقلب يرسل ويستقبل ويخفق.

حسيبة لم تتعلم في قريتها بيت نتيف فلا مدرسة فيها للإناث. أخوها محمد الأخ الوحيد تعلّم حتى السادس وكانت تزاحمه على دفتره وقلمه، تعلمت معه ومنه في البيت كيف تفك الخط قراءةً وكتابةً، وتعلّمت أن تعد للمائة ثم جدول الضرب والطرح والجمع، وهو ما كانت تختزنه في رأسها. تمنت في ذلك الحين (ومنذ ذلك الحين) لو

fb/mashro3pdf

كانت ولداً وسيطرت عليها أمنيتها تلك... تعلمت الخياطة على كره منها، ولم تفلح كثيراً فيها، فوجهتها الأم لإصلاح ملابس العائلة فحسب. ظل أحمد رغم خجله الظاهر يحوم في الحي متصيداً رؤيتها، ثم أخذت تعرف مواعيده فتخرج لشراء حاجة ما، وهناك تبادله التحية وكلمة كلمتين لا أكثر، ومع مجموع التحيات والكلمات من يوم ليوم وشهراً بعد شهر، عرف اسمها واسم عائلتها، وأنها تقرأ وتكتب ولم تدخل مدرسة رغم أنها شاطرة.

حين أتمّ المدرسة سارع للعمل في الكهرباء، لا لشيء إلاّ ليتأهل للزواج وتزوجا بعد سنة. أبوها سألها آنذاك: هل تعرفينهم؟ فأجابته أن أهل المخيم يعرفون بعضهم بعضاً، وأنها تعرف شقيقته من أيام المشغل. وكانت بالكاد تعرفها. كان ذلك في صيف العام **1955**. تعرف الجارة أم عوني هذه التفاصيل فقد أحاطتها بها حسيبة بعد وفاة المرحوم ببضعة أشهر، وحتى تفهم لماذا حزنها عليه شديد.

تقول حسيبة: صار العرس واشتعلت اللوكسات وبدأ الدبك، والدنيا حولنا دابكة..(مضطربة) مظاهرات ومناشير وأحزاب وهتافات. هناك معازيم من مخيم الحسين ومن النزهة لم يتمكنوا من الوصول للعرس، بعضهم أخذتهم الشرطة على أنهم متظاهرون. وهناك متظاهرون دخلوا إلى خيمة العرس مثل المعازيم هرباً من مطاردة رجال الشرطة. أكلوا وشربوا ودبكوا مع الناس وبعضهم أطلق هتافات، فقيل لهم صلوا على

fb/mashro3pdf

النبي، فصلّوا عليه وسكتوا.. تقول لها جارتها ضاحكةً وتخبط على كتفها خبطاً رقيقاً: مش قليلة يا أم يوسف من يومك، أنت تزوجت عن حب إذن. بادلتها حسيبة الضحك الصافي وردت عليها بنبرة متحدية: مُش (أليس) أحسن من الجواز عن مقت؟ لم تكن تقصد جارتها العزيزة، بل نساء أخريات بلا عدد تزوجن على العَمَية (بعماء) وعلى البيعة، ثم تتفهم أوضاعهن فمنهن شقيقة لها: بدهن (يُرِدن) السُترة.. تصفها الجارة بأنها قوية، فترد: وأنت قوية مثل فرس ولهذا أحببتك. لم تعد الجارة تفتح هذه السيرة حتى لا تفتح الجروح. حسيبة تفتحها مع نفسها قبل النوم وما أن تستيقظ. وما زال يراودها أمل، بأن أحمد.. أبو يوسف سوف يفاجئها بعودته إلى بيته ذات يوم. وإلا فسوف تذهب إليه بنفسها.

تزور قبره في العيد وفي بعض المناسبات ومنها حين يضغط عليها شوقها إليه، أو أن تخشى عبث أحد بلحده، ولا تصدق أنه داخل حفرةً. تطمئن على سلامة الشاهدة، تدور حول القبر كما حول نفسها، ترسل نزراً من دموع لا تطفىء حسرتها، تقرأ سوراً قصاراً، تتلفت حواليها وتنتظر مقرئاً أعمى أو ندابةً، أو طفلةً متعوسة يرسلها أهلها الطامعون، لتعطي ليس عن روحه فحسب، بل منه من خيره وليس من نقودها. تشعر بوجوده في البيت أكثر مما في القبر. ما يجعل زياراتها قليلة، وهو ما يثير حيرة جارات ويفتح شهيتهن على النميمة.

fb/mashro3pdf

خاصةً أنها لا تتزاور إلاّ مع إحداهن (أم عوني)، وهذه تتولى الدفاع عنها وتشكمهن.

تستيقظ نشطةً لكن وحيدةً، وسرعان ما تتذكر أنها ليست وحيدةً تماماً، فالسلحفة معها في البيت تنمو وتتنفس. تنهض للوضوء والصلاة فتتقدم منها الصغيرة كأنما تُصبّح عليها. باتت تعرف المواعيد. تثق حسيبة أكثر فأكثر أن إحضارها لها لم يكن خطأً.. ما الخطأ فيه؟ الخطأ لو أنها تركتها في الشارع لعميان القلوب.

تشم حسيبة في الغرفة رائحةً أسوأ من رائحة بقايا طعام الأمس. إنها رائحة بيت السلحفة.. الكرتونة وما فيها. تفكر في أن الحزينة لهذا السبب "طلبت" عدم الإغلاق عليها. تنهض وتحمل الكرتونة إلى الباحة. تفتح الشباك وتُهَوّي الغرفة وتنظف الموضع الذي كانت فيه الكرتونة. حسيبة لا تساوم على النظافة. قلة النظافة تشل تفكيرها، تُضعف معنوياتها وتثير تشاؤمها. تتوضأ وتصلي والصغيرة أمامها، وفي ختام الصلاة تهز رأسها. لو أنها تأكل شوكولاتة لأطعمتها، فهي تحتفظ ببعض منها. تخاطبها حسيبة: سوف تنتقلين إلى الخارج، ولن تخافي هناك. تهز الصغيرة رأسها الصغير فتأسر قلب حسيبة: لو كانت بني آدم، لو كانت ولداً لعانَد ورفض. نقلت الكرتونة إلى الباحة والصغيرة تتبعها، وفي زاوية ملاصقة للغرفة من الخارج وضعتها، وهناك دلفت السلحفة داخلها راضيةً قانعةً. أما حسيبة فتولاها قلق: فالصغيرة ليست كبشاً أو

fb/mashro3pdf

بقرةً حتى تقوى على المكوث في الخارج. بعدئذ.. بعد صفنة (بُرهة تأمل) قصيرة باتجاه الأفق الشرقي، تحت سماء لم تبيَضّ بعد، وبين يدي فجر ينبض بأنفاسه الأولى، على صفحة وجهها على رقبتها النحيلة وعلى ظاهر يديها المعروقتين، لم تجد بُداً من كتم قلقها أو تخفيضه: حُطّي (ضعي) عقلك في رأسك، قبل أن تلحس السلحفة عقلك.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

15

عادت الغرفة إلى الفراغ أو الفروغ، وأصبح حضور السلحفة جانبياً. قالت حسيبة: أحسن. حتى لا يظن الناس بي الظنون، حتى لا يشط تفكير الجارة أم عوني، وحتى لا يقولوا إني موالفة ومؤاخية قرقعة أتناول طعامي معها وأتحدث إليها، فليهنأوا بقططهم وكلابهم وفئرانهم وصراصيرهم. وفكرت أنها تعطف على المخلوقة الصغيرة ليس إلاّ، وأن العطف لا يعيب صاحبه. وأنها غريبة منفردة ليس لها من جنسها أحد في الديار، لا كحال الدجاج والغنم والنمل و..و. لها أهل وربما لها موطن.. لكن أين، في أي وادٍ في أي جبل وأي غابة، في أي حقل أي مغارة وأي ديرة؟ لن يسعفها أحد في جواب، وإلاّ لكان ماجد أنبأها فهو متعلم يكثر من قراءة الكتب والصحف. ولن يسعها التماس جواب بنفسها، وبمسعى لا تعرف أين تتجه به.

في الصباح التالي نقلت هواجسها لأم عوني. هذه أثنت على نقلها خارج الغرفة "خير ما عملت". قالت حسيبة: الرائحة.. رائحتها. الجارة تستهويها مداعبةً تلقى قبولاً من حسيبة مهما قالت ومهما انتقدت. صفنت أم عوني وقالت: اسألي "البث المباشر". وكانت تقصد برنامجاً إذاعياً صباحياً يجيب على شكاوي الجمهور. أجابتها

fb/mashro3pdf

حسيبة بعد أن كتمت دهشتها: ليس عندي راديو.. الراديو خربان. أجابت أم عوني: إنّ في التلفزيون برنامجاً مثله، واستدركت أن البرنامج لا يجيب على مثل هذه الاستفسارات، وأنها كانت تمزح حين قالت: اسألي عن أصحاب السلحفة إذا كان لها أصحاب (مالكون، عائلة). ولو أجابوا في الإذاعة أو التلفزيون، لقالوا لها وكل من يسمع يسمع: الناس في إيش وأنت يا حجة في إيش (الناس منشغلة في أمور أكثر أهمية). قالت حسيبة: هذا الناقص. مع أن بعض الناس يشكون في الإذاعة ويسألون أسئلةً من نوع: لماذا لم يسقط المطر، ولماذا يثور الغبار..

سرح خيال أم عوني قائلةً: قد يأخذوها منك إذا عرفوا. أم عوني واسمها سلوى تحدثت بجدية. فما دامت السلحفة غريبة ولا أحد يدري خيرها من شرّها، أذاها من نفعها، فقد تسأل عنها البلدية أو الصحة.. تأخذها للفحص والمراقبة، وقد لا يسأل أحد. عليها أن تتوقع كل شيء. قالت حسيبة ليأخذوها ويحموها. قامت وأحضرت قنينة بيبسي كبيرةً مليئةً بالماء، وسألتها سلوى هل تريدين أن تسقيها فهزت رأسها: لا .

. أخرجتها ورشت الماء ببطء بعد أن سدت فوهة الزجاجة بإصبع إبهامها، وأبقت على فتحة ضيقة لنزول الماء المضغوط. رشت على صدفتها وعلى أقدامها وعلى رأسها الصغير، وما لبثت السلحفة أن

fb/mashro3pdf

أخفته. ضحكت الجارة وخاطبت السلحفة: نعيماً. قالت حسيبة وهي ترمق الأرضية التي انتشر الماء عليها: ليأخذوها نظيفةً إذا أرادوا.. ماجد طلب أن يأخذها لأولاده، وكأن ليس لديهم ما يلعبون به في عمّان، وأنت تقولين إن البلدية والصحة يمكن أن يأخذوها اليوم أو غداً. من يريد أن يأخذها أيضاً، ولم يرها أحد بعد عندي، ولم يمض عليها معي غير ثلاثة أيام ؟

قالت سلوى وقد سبقتها رنة ضحكتها: أنا.

خذيها، احمليها. مبروكة عليك. أجابت حسيبة على الفور لتداري تفاجؤها. ردت الجارة: ربّيت أربعة أحدهم أخذ ربنا وداعته صغيراً. مش طايقة حدا (لا أطيق أحداً). وكانت ربّت ابنها الثالث فهد ومات قبل أن يدخل المدرسة.

حسيبة وهي لا تنقطع عن التفكير في أحمد أبو يوسف، مالت على جارتها: إذا صار لي شيء، خذيها عندك. لا تتركيها لعميان القلوب.

وإذا أبو عوني لم يرضَ؟ سألت الجارة.

أبو عوني زوج الجارة يعمل في تجارة مواد البناء، يملك محلاً لمواد البناء. قلما يراه أحد في الحي بشعره الأشيب، باستثناء أيام الجمعة والمناسبات، حيث ينشغل بصيانة سيارته المرسيدس البيضاء موديل 1978، أو إصلاح شيء في البيت، أو يفتح التلفزيون على "الجزيرة". يركن على أم عوني وعلى سامي في تسيير شؤون البيت.

fb/mashro3pdf

لكن أحداً منهما لا يستطيع مغالطته في الحساب. عقله دفتر، تصفه أم عوني. ومع الوقت أصبح عقل سامي وعقل أمه مثل الدفتر أيضاً. مثل الكمبيوتر يصحح الابن الشاب.

إقنعيه.. القرقعة لا تهش ولا تنش. ألم يقل سامي أنها تجلب الرزق؟

في الأثناء فكرت حسيبة في رزق أولادها، وتمنت أن يصح كلام ابن الجارة، وأن لا يبيعوا بيت العائلة. هتف هاتف لها أن روحها سوف تظل تزور البيت، وتطوف حوله ليل نهار. وفي سرحانها تساءلت: وبيت المخيم؟ هفّ قلبها إليه مع لعنات عليه: يقطع المخيم وأيامه. أما البيت الأول في البلاد.. فتذكره بحرقة. تذكر البلد (القرية) وتذكر من البيت بابه العالي وحاكورته الصغيرة. وتذكرت أن هناك عائلات في الضفة ومن الأردن، زارت بيوتها في فلسطين. منّت نفسها زيارته والإقامة فيه مع من يرغب من الأولاد ومع سلحفتها آخر أيامها، لتعاود هناك أول أيامها. لكنهم هدموا بيوت القرية تتذكر، وتكاد لا تصدق أن بشراً يفعلون ذلك بغيرهم.

أم عوني اعتادت احترام صفنات جارتها. هي أيضا انتقلت إليها العدوى وأخذت تصفن.. تسرح في أيام ولّت، وأيام تركض ركضاً بها.. إلى أين؟ الزمن ما عاد فيه بركة. ما أن يبدأ يوم حتى تغرب شمسه، ما أن ينقضي يوم الثلاثاء حتى يَهلّ الاثنين. أما السلحفة

fb/mashro3pdf

حولهما فتزحف وتخوض في بقايا الماء على الأرضية، مثل ولد يلعب في ماء ضحل قرب أهله. ولولا خشية حسيبة من إهدار الماء لسكبت لها قنينةً أخرى، لتنعم بمزيد من اللهو.

والزرّيعة (المزروعات)؟ هبت حسيبة إلى المطبخ الداخلي وملأت القنينة البلاستيكية مجدداً بالماء. منذ حلّت الضيفة لم تسق الليمونة والمجنونة، والشجرة الثالثة التي لا اسم لها ويكفيها منها خضرتها الدائمة. كانت تتمنى من زمن لو زرعت زيتونة، لكن الزيتون يزرع في أرض براح، لا في تنكة زريعة. شروشه تذهب بعيداً تحت التراب وحتى فوقه أمتاراً.

هل تعرفي قصة الأرنب والسلحفة؟ سألتها الجارة.

أعرفها. أجابت حسيبة:. لا أصدق القصة. لا أصدق أنّ السلحفة تسبق. تضحك حسيبة وتقول خراريف (تخاريف). ليس من الضروري أن تسبق السلحفة. ربنا خلقها بطيئة. الجارة تقول إن هناك أرانب عند دار أبو سمحان، نطلب من سامي أن ينظم سباقاً في الحارة بين أرنبهم وسلحفتك. حسيبة تجاهلت ما سمعت وقالت: الله العليم أنها تقطع بلاداً ولا تتعب. أما هنا في الزرقاء فلا جبل (نسيت الجبل الأبيض المأهول بالسكان) ولا وادٍ ولا غابة. باص أو تراك (شاحنة) يمكن يدهسها ويظل ماشي. من سوف يسأل عن سلحفة مدهوسة؟ من يسأل يضحكوا عليه ويستخفوا بعقله. دهس روح

fb/mashro3pdf

ليس حراماً عندهم. من لايرحم حيوان لا يرحم بني آدم. سلوى ردت: من لا يرحم بني آدم لا يرحم حيوان.

حسيبة توافق: ناس هذه الأيام لا يرحمون أنفسهم. السلحفة رفعت رأسها قليلاً باتجاههما كأنما تصغي إليهما، وتجمع كلامهما في رأسها الصغير. لاحظتها أم عوني فنقزت صلّبت وخبطت خبطة هينة على صدرها: قُرقعتك بتخوف يا أم يوسف. تخيلت الجارة في تلك اللحظة روحاً إنسيةً كامنةً تتململ في إهاب السلحفة (ربما تحت صدفتها)، وهي تستشعر هذه الروح لدى قطط متروية أو هائمة ، خاصة في الليل: قطط تطلق مواء شجياً، مفعماً بالعتب المحرور والنداء الملهوف كأنما تنادي أحداً من البشر لا من القطط. قالت حسيبة: أنت التي تخافين. الجارة نطقت في واقع الحال بما تهجس به النفس القلقة المتوجسة لحسيبة، التي استدركت: اللي ما بخاف ما بخوف. قالت ذلك وقد حفّت السلحفة جرمها بقدم حسيبة فنفرت مما شعرت به من ملمس خشن على جلدها كملمس رجل، وتنهدت تنهيدة صبر ورجاء وهي تزيح قدمها، وفكرت بسؤال ماجد لها إن كانت ذكراً أم أنثى. ثم رأت أن تلك تخاريف أشغلتها عن الوقوف لوداع سلوى، وهذه قالت في نفسها وهي تنسحب: التمت الحزينة على خايبة الرجا. وحمدت الرب، لأنها قالت ما قالته بكتمان و لم تسمعه الوحيدة.

fb/mashro3pdf

16

خافت حسيبة أن تفسد السلحفة صداقتها بالجارة. أن تشلك هذه في عقلها، وأن تفقد ثقتها بها. لم يبق لها أحد يسندها، ويقف بجوارها غيرها. حدسها أو وساوسها لا فرق، حذرها من هذه النتيجة لصحبة العمر. الجارة مش بالعة الضيفة الغريبة (غير مقتنعة بها). وساوس حسيبة في محلها، ولو أنها زائدة عن الحد. لعنت في سرها سلحفتها ثم لعنت ما لا تدريه: أهو تدبيرها الخاطىء أم أقدار عمياء.

ماجد حذر أمه منها. فكرت أنه لم يطلبها كي يلعب معها الأولاد في عمّان كما قال، بل ليتخلص منها ويرميها في الطريق. لم يبق ما يستحق التخلص منه في الديار، إلا هذه الفقيرة الصغيرة مثل صوص، فكيف حين تكبر. تخيلتها نمت.. اشتد عودها وكبرت وصارت بحجم خروف، وصار لها صوت غريب يصدر عنها، يشبه خوار بقرة أو تشحيط سيارة قديمة، وقد ربطتها من عنقها عند البوابة بحبل خشن طويل، وتشتري لها كوم خس وجزر كل يوم، ويعلم الله ماذا ستشتهي حين تكبر، ربما تشتهي لحماً وكستنة (كستناء)، وتنفق عليها أكثر مما تنفق على نفسها. قالت إن أحداً لن يُعتّب باب البيت بعدئذ لا كبير ولا صغير، وقد تتنازل عنها لمن يرغب في إيوائها وحمايتها. ثم تنبهت أنّ ذلك لن يحدث

fb/mashro3pdf

إلاّ بعد مائة عام، وهو العمر الذي قدّره ماجد لها، وقد تعيش مائة عام ثانية كما ذكر الابن. مثل شجر الزيتون الرومي في البلاد، قالت. لكن شو جاب لجاب (لا وجه للمقارنة): الزيتونة مباركة يا حسيبة.. أما هذه فمن باركها. لا أحد. واحد لم يلعنها أيضاً.. من لعنها؟ سارعت للاستدراك.

تخيلت أنها تحاجج بذلك الجارة وأهل الحارة، وكل من تعرفه أو يعرفها. وسمعت ماجداً في خيالها يقول إنها صارت محاميةً وأفضل محامية عن السلحفة. وكأن هذه الفقيرة آذت أحداً بشيء، أو خطفت لقمة أحد، حتى يقف محامٍ لها ويطلب أتعابه. وضحكت في سرها على هذه الشطحة. وكانت سمعت كلمة أتعاب من طه، حين صدم رجلاً وكانت كل نتيجة الحادث، أن المصاب اتسخت بدلته وانجرح كوعه وانكسرت نظارته وانقطع حبل تفكيره. اضطر طه أن يوقف محامياً وعلى الوقفة أتعاب.

طه أكبر من ماجد وأصغر من يوسف، لا يتدخل في شيء محتفظاً على الدوام بسهيانه. بوجوم معهود لا يفارقه في الأعياد والأعراس، فلا يضحك وجهه للرغيف السخن. حُر أن يضحك أو يعبس. لماذ يضحك للرغيف السخن.. ما الذي يُضحك فيه. ليس لأحد عنده شيء.

طه لم يتعلم مثل شقيقيه. لم يكن له خُلق على القراءة فقطع دراسة المدرسة قبل آخر سنة. وقعت مشكلة له. تضارب مع ولد دمه حار

fb/mashro3pdf

مثله، لكن الولدين عقولهم صغار.. وكاد أهل الولد يقتلون طه بمسدس أحدهم، فالقتل على هوشة أولاد مرجلة، لولا أن لطف الله سلّم ولولا تدخل أهل الخير. يجب أن يتدخل أهل الخير، فالقانون يُطبَّق عندما يريد له أحد أن يطبق. ضربه مدير المدرسة الذي يمت بصلة قربى بعيدة للولد الثاني، فشتم المدير وأمسكه من خُناقه، وكاد يخنقه لولا تدخل أساتذة تشاطر بعضهم عليه بالضرب. وبقيت ندبة في جبينه تشهد على ما صادفه وعاناه. فصلوه من المدرسة فسارع للتدرب على السواقة وأصبح سائقاً في "أسبوع زمان" قبل أن يكمل الثامنة عشرة. وانتقل إلى عمّان. كان ذلك من عشرين سنة. وهو ما هدّ حيل أبو يوسف ورفع ضغطه وقرّب أجله. يسوق باص المؤسسة وإلى جواره كوي شاي أو قهوة. إذا لم يكن الكونترول نشيطاً في خطف القهوة والشاي للسائق على الإشارة الحمرا ، فإن طه يظل وراءه حتى يتخلص منه.

يملك طه أيضاًسيارة تكسي أصفر يعهد بها إلى سائق، ويلتهم سجائر أكثر مما يأكل. لو صادف السلحفة في طريقه لدهسها دون أن يرف له جفن، غير آبه وغير متفاخر فهو لم يرها والسلام: يا دوب نشوف البني آدمين.. ولو علم أن أمه تربّي سلحفة لعلّق: حرة، وسكت. أو قال: سلحفة.. سلحفة، وما لُه. وهو أيضا حر في الانقطاع عن أمه وشقيقه مكتفياً بعائلته الصغيرة، وبالفرجة على الوجوه العابرة لركاب الباص. تستهويه وجوه من لا يعرفهم، بمن في ذلك نساء

fb/mashro3pdf

بعضهن محجبات مزوّقات، عيونهن مفتوحة وقوية لا يترلنها، قبل أن يترل عينه هو أولاً. يستهويه الأغراب ويثيرون فضوله.. فلا يضطر للسلام والثرثرة مع من يعرفه (من كان يعرفه قبل عشرين عاماً مثلاً)، وهو ما يحدث أحياناً رغم محاولاته التطنيش (التجاهل)، ويستذكر مُكرهاً معهم وباقتضاب ما لا يحب استعادته، حتى من ذكريات هيجة. لا تروقه العودة إلى الوراء أبداً، ولحسن حظه فإنه قلما يضطر للعودة إلى الخلف في الباص. أما تذكرة الركوب فعلى معارفه وأقاربه وجيرانه أن يدفعوها، بلا لف ودوران ولا طول سيلة (سيرة).

طه أخذ عن أمه شرودها وعنادها وقلة مخالطتها للناس. وأخذ عن أبيه الاسم الثاني له أحمد واسم العائلة السماعنة. للأمانة أخذ أيضاً طوله، ورغم أن أمه ليست قصيرة لكن أباه أطول. "مارِد" كما كانت حسيبة تصف الأب أحمد مداعبة له.. المردة "ينتشرون" في عتمة ليالي الريف، بالقرب من أشجار الجوز والخروب الطويلة وفي شوارع المخيم بالقرب من أبنية عالية غير مكتملة. يشبه أباه في الطول والأكتاف العريضة، كما يشبه أشخاصاً بلا عدد طوال القامة عريضي الأكتاف، دون أن يكون له طول بال (أناة) المرحوم.

أمه تذكره ليل نهار وتحتفظ بصورٍ له تقلبها، حين يشتد شوقها إليه بعد كل عيد. تزعل منه ولا تكرهه. لماذا تكرهه. بل إنها تحبه. تحب أنفته. حتى تكشيرته تحبها. تقول مثله إنه: حر يفعل ما بدا له، تقلقها فقط

fb/mashro3pdf

حساسيته الزائدة وضيق خلقه، ثم تَكتّمه. تسعد بحضوره مثلما تهنأ بحضور يوسف من السعودية، طه من العيد للعيد، ويوسف كل سنة أو سنتين. وهذا حال الدنيا على قولة ماجد، تحدث نفسها تبلع غصتها وتحبس دمعتها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

17

أمطرت مطراً غزيراً في الزرقاء بعد العصر، ساعةً وأكثر قبل المربعانية (أربعينية الشتاء) بيومين، وهو ما يُحتسب هدية سخية ونادرة من السماء، للمدينة الحضرية النشطة المكتظة بالسكان وذات المناخ شبه الصحراوي، ولأهلها الريفيين ومنهم مسيحيون، وللبدو والشيشان.. أمطرت وغسلت الشوارع وواجهات البيوت، وارتوت الليمونة والمجنونة والشجرة الثالثة، وكادت حسيبة تتزحلق حين خرجت إلى باحة البيت تستقبل المطر، وتغسل بخيوطه المدرارة يباس روحها وبدنها، وتتمنى لو تستحم فيه. لم تقع. أحكمت شد غطاء صوفي سميك على رأسها، وهي تستقبل الغيث وتتمنى لو كانت لها موهبة الإنشاد، لتنشد له كما كانت تنشد في طفولتها: "شتي وزيدي على دار سيدي". ليس لها في الغناء وإن كانت تختزن مقاطع وتهاليل "من هنا وهناك". ابتلت كرتونة السلحفة حتى نقعت بالماء وبدأت تتقوس من الأعلى. هتفت: راحت الكرتونة. لم تكن قد راحت بعد، لكن حسيبة ولها من اسمها نصيب، تتحسب للأسوأ. أما الضيفة المقيمة فقد تكرمشت، انكمشت في الداخل: لا حِس ولا نِس. سألت الجارة: ما العمل؟ فأجابتها: عليك بصندوق من خشب.

fb/mashro3pdf

خشب عادي فنير أو خشب صحاحير (صناديق) فيه ثقوب على الجانبين وتضعين خيش على سطحه. وتكمل الجارة ضاحكةً: وبطانية صوف ناعمة صغيرة في الداخل، مثل حرامات البُبيات (حديثي الولادة).

تذكرت حسيبة البيات الشتوي الذي تحدث عنه ماجد، فاطمأنت قليلاً. سوف ترتاح من مسؤوليتها وتنام ليلها الطويل. تنام هي وأنام أنا، وتضحك مع نفسها: نوم الظالمين عبادة. وتنكر أن يكون بوسع ضيفتها ظلم أحد. فهي مظلومة: ضعيفة وضائعة في الزرقا تحت رحمة أبو خيمة زرقا. تضحك ثانية مع نفسها.

تدُلُّها الجارة على نجار شاطر وآدمي، ليصنع لها صندوقاً بسيطاً على المقاس. تفكر حسيبة أنه سيعرف بأمر السلحفة.. ليعرف. لماذا لا يعرف. ماذا لو عرف، لماذا السر.. لا أربّي أفاعي ولا عقارب، لا أربّي فيلاً أو زرافةً، وإذا كان عنده سلحفة ذكر نعقد (قران) لهما على الساكت أو بعرس مطنطن، كما يشاء النجار ونصبح أنا وهو نسايب. تضحك مع حالها. لا أحد عنده مثلما عندك، تقول لها الجارة بنبرة من يغبطها ويناوشها. تكمل حسيبة وقد أثار هطول المطر انشراح مزاجها: على ماذا يا حسرة. ناس عندها عمارات وبيارات وسيارات، وأنا عندي سلحفة قد الكبشة (بحجم قبضة اليد). وكأني أريد شيئاً غيرها.

fb/mashro3pdf

فجر اليوم التالي فقدت حسيبة الهمة على النهوض للصلاة. شعرت رغم دفء الفراش ببردية شديدة (ببرد). أمطرت على السلحفة ومرضتُ أنا. نسيت حسيبة أنها خرجت ووقفت تحت الزخ (الهطول العنيف)، وكادت ترقص احتفاء وانتشاء به، وقد نسيت نفسها "تلهو" هناك مثلما كانت تفعل وهي طفلة بخيوط الماء. ونسيت أن تشعل الصوبة (المدفأة). وضعت يدها على جبينها تتحسسه، ولم تتبين ما إذا كانت حرارتها عاليةً أم لا. وقالت: حتى الحكيم لا يفحص حاله. واستذكرت تبادلها الضحك عصر أمس مع الجارة، وقالت: هذه آخرة الضحك. وتركت نفسها تنام. حلمت أن الشرطة أخذوا منها سلحفتها وسألوها من أين أتت بها، ولماذا لم تبلغ عن وجودها لديها. وأن شيخاً شاباً يهدي عليها بأن حبس السلحفة، مثل حبس الأطفال حرام. وطبيباً ملتحياً يحذرها من تناول لحم السلحفة، وابن الجارة يخبرها بأنها فازت في مسابقة من يؤوي أغرب حيوان. وقد جادت عليهم بما فاض عنها من كلمات، لم تدركها ولم تذكرها حين أفاقت.

نامت نوماً متقطعاً اختلط فيه الصحو بالهذيان. لم تستغرب ما رأته من منامات، وكأنما توقعتها. أو توقعت منامات أسوأ لم ترها. تضايقت فقط من دوخة ولم يكن في مكنتها النهوض لعصر ليمونة وصنع ليموناضة. شكت من جفاف في حلقها، مثلما كانت تشعر

fb/mashro3pdf

في الأيام الخوالي، حين كانت تدخن سيجارة أو سيجارتين مع فنجان قهوة في العشيّات، أيام الغالي أبو يوسف، فتستيقظ وحلقها مثل الحطبة. تركت التدخين من زمان لطه ولماجد أيضاً. تسهو وتغفو قليلاً فيوقظها العطش. تتحامل على نفسها تنهض وتزيح اللحاف الوردي عنها، فتشعر بالبرد يلسع أوصالها كأنما تتعرض لعقاب مقصود. فتنزلق عائدةً إلى دفء الفراش، لتشرع من جديد في مغالبة الوهن، واستجماع قوتها على النهوض.

تمرض حسيبة ولا ينال المرض من مزاجها ومعنوياتها. ليست مثل نسوة يتمارضن، لمجرد أن السن تقدم بهن وآن لهن أن يمرضن. ليست مثل مريضات يفرطن في استدرار شفقة الأولاد والبنات والأحفاد عليهن. أدركت أن برد الأمس مع ماء المطر قد نالا منها. فكرت في أن الصَدَفة الصلبة للسلحفة تحميها من المطر والشمس، فالصدفة مثل سقف بيت، وحماية منها فيها (حماية ذاتية) لهذه المخلوقة. رفعت جذعها مرة أخرى بعناء أشد، وأخذت تتمتم بأدعية، بعد أن حرمها الإعياء من صلاة الفجر. لكن الأعياء غلبها، وبشق النفس تمكنت من الانزلاق داخل السرير، وقد أضناها وأشقاها ما بها فنفرت دمعة حَرى من عينها. ثم أسلمت نفسها لنوم ساخن انتظاراً لشقشقة النهار.

fb/mashro3pdf

18

ليس غريباً أن تقع حسيبة في المرض، وقد شقت التجاعيد طريقها على صفحة وجهها المُستدق، وحول الفم الصغير كفم طفلة لولا نشاف شفتيها، وقد جاوزت السبعين بأربع أو بخمس سنين على الأقل، وهي في الأصل تشكو من علل في المعدة ومن ارتفاع ضغط الدم.

حسيبة الذاهلة عما حولها، الزاهدة، المقلة في تناول الطعام وفي ساعات النوم، ومن تبلغ بها غفلة متعمدة تعريض بدنها الناحل لدفق المطر.. كانت تحاملت على نفسها وقصدت جارتها بعدما غادر أبو عوني إلى متجره، وسمعت صوت تشغيل سيارته حتى أنها شمت في بيتها رائحة البنزين. جارتها أعانتها على الوقوف وأعدت لها شراب زهورات ساخن، وحلفت عليها أن تأكل بيضةً مقليةً وقطعة جبنة بيضاء ومربى مشمش حتى تقيت بدنها من التعب، واتصلت بتلفون (رقم) ماجد الذي تحتفظ به الجارة لمثل هذه الحالات الطارئة. تطوعت الجارة بناءً على تمنّيات ماجد عليها، وبعد استئذان أبو عوني على الهاتف، بنقلها بسيارة تكسي أصفر إلى المشفى من باب الاحتياط.

fb/mashro3pdf

ثلاثة أيام ونهار مكثتها حسيبة في المشفى أمضت نصفها نائمة، والنصف الآخر تخضع لفحوص التصوير والتحليل المخبري، وتصلي لابثةً في موضعها على السرير الذي يخفضونه ويعلونه متى يشاؤون، أو تحدق إلى الحائط الأبيض. ولما زارتها جارتها في اليوم الثاني لدخولها، وجدتها بالفعل مستغرقةً في النوم، صدرها يعلو ويهبط ووجهها محمر. نادت عليها ولم ترد وهي التي نومها خفيف. قلقت عليها وتركت لها كيساً به معمول بعجوة صنع يديها وتفاح سوري أحمر. زارها ماجد وقف على رأسها وتبادل أحاديث مع الأطباء، وطمأنها أنها بخير.. لم تصدقه ولم تكذّبه، فحسيبة تعتمد على نفسها في الحكم على الأمور صغيرها وكبيرها.

تشافت بسرعة في المشفى الحكومي. قالوا إنها نوبة انفلونزا مع حمى شديدة، لم ترفع ضغطها عن معدله، ولم تزد آلام المعدة لديها. عزا أطباء تشافيها إلى قوة إيمان الحجة. بعضهم جاملها بأنها في صحة جيدة تحسدها عليها الصبايا، وممرضة متجهمة متعنطزة (متغطرسة) احتجت على مبيتها في المشفى فـ "أنت لا تشكين من شيء"، ولم تجد حسيبة ما ترد به عليها سوى قولها "أنت تشكين من شيء". أشكو من ماذا؟ زعقت الممرضة السمينة. لم تُجبها حسيبة. كان في بالها أن لا تتأخر عن العودة إلى البيت، وتمّ لها ما أرادت مصحوبةً بماجد وبكيس أدوية أشكال ألوان، بعدما تركت كيس التفاح

fb/mashro3pdf

والمعمول لعاملة من الغور تعمل في تنظيفات المشفى، وتتفادى من فرط شقائها النظر إلى عيني أي أحد.

عادت إلى البيت خفيفةً مشتاقةً، كمن ترجع من سفر بعيد. وصلت وتأخر عنها ماجد، الذي قصد دكانة لشراء ما تيسّر من مواد تموين لأمه: رز معكرونة عدس تونة شاي سكر مناديل ورقية وصابون. استنشقت رائحة البيت أول ما عادت، وسارعت إلى فتح الشبابيك وتنسمت هواءً تحبه، هواءً جافاً لكنها تحبه، ورأت مشاهد تؤنسها حتى لو لم تعجبها: ألوان بيوت الجيران المصفرة الحائلة اللون، مما يميز البيوت القديمة للزرقا المدينة الصاخبة المجاورة للصحراء والتي بنيت على عجل وكيفما اتفق في أربعينيات القرن العشرين. رأت غسيلاً منشوراً، وقد تجاورت ملابس رجل مع ثياب نساء، سطلاً أزرق ملقى على الأرض، علبة سردين صفراء فارغة، دميةً بلاستيكيةً متروعة الرأس، دالية عنب تجردت من نصف أوراقها. ثم فتحت على السلحفة بحذر مخافة أن يكون أصابها شيء، وأصدرت صوتاً باتجاهها: بِس .. بِس، وهو تصويت المناداة على القطط فتحركت عينا هذه بصعوبة، ولاحظت حسيبة بقايا خضار يانعة أمامها. تحركت السلحفة بتثاقل وتوقفت، فتركتها.

أوصاها الابن أن تتذكر "أخذ" الدواء في مواعيده، وأن تتدفأ، وتتأكد أن في الجرة غازاً، وقبّل يديها ورأسها وترك لها رغم تمنعها

fb/mashro3pdf

بضعة دنانير حمراء وخضراء، وغادر مرفوقاً بدعواتها، ولاحظت أنه لم يفتح على السلحفة ولم يأت على ذكرها وربما نسيها. قالت لنفسها: أحسن. وتمنت لو تكثر المناسبات حتى تراه أكثر، وضحكت في سرّها على شطارتها.. فمن يتمنى لنفسه المرض، مع أن النيرس الممرضة المزيونة، أبلغتها مستاءةً أنها لا تشكو من شيء. شابة مثل البغلة، وتحسد واحدة في عمري على العيا (الإعياء) وقلة العافية.

لما زارتها جارتها مهللةً بسلامتها، لاحظت أن حسيبة ازدادت نحولاً. برزت عظام وجنتيها، وبدأت عيناها تغوران وإن احتفظتا بصفاء زرقتهما السماوية، وتهدّل ثوبها على كتفيها. ولما لم تفلح في كتم انطباعها وإخفاء قلقها، فقد استدركت تمتدح الكسم الغزلاني (قوام الغزلان) لأم يوسف، التي تستملح كلام سلوى مهما قالت.. مهما شرّقت ومهما غرّبت، وتُصدّقها دائماً حتى لو لم تحلف بمريم العذرا. وقد فهمت ما تقصده سلوى: أنها نحفت أكثر وأن المرض نال من عافيتها. فقالت: همّي ثقلت رغم أن صحتي كما ترينها، فكيف لو سمنت؟ وكادت تتراجع عما قالته، بعدما تنبهت إلى أن جارتها ليست نحيفةً. الجارة نسيت ما سمعته، وأخبرتها إنها زارتها في المَشفى، ونادت عليها ولم تسمعها. قالت حسيبة: سمعتك. فاندهشت الجارة: لم تردي عليّ، لماذا لم تفعلي؟ تنهدت حسيبة: لم أستطع الكلام. حلقي ناشف، ولا أقدر أن أفتح عيني. كنت أغلي،

fb/mashro3pdf

وأشوف منامات أشكال ألوان. مستعيذةً بالله قالت: حلمت مرة أني في الجنة الفسيحة، أنهار ماؤها مثل البلور وأشجار مثمرة وطيور ملونة، وهناك من يهمس ورائي ويحاول إخراجي منها.

"شدة وزالت" قالت الجارة، وشكرتها حسيبة على التفاح والمعمول، وأبلغتها أنها تحممت بالمطر قبل دخولها المشفى بيوم. هذا هو السبب.

ضحكت سلوى: ماذا تقولين..تحممتِ؟ أجابتهاحسيبة وقد فهمت ماذا تقصد جارتها: تحممت في ملابسي. كنت أشُر ميّ (أقطر ماءً) نسيت حالي وأنا واقفة. كل وين و وين لما تمطر. المطر ضيف عزيز في الزرقا وقد خرجتُ لاستقباله. استقبال الضيف واجب.

المطر ليس مجرد ضيف على حسيبة، فهو حبيب تشتاق له، تغتسل به من غبار الأيام، من جفاف الروح والبدن، من ضجر مقيم (تُسميه: زَمَق)، وتنغمر فيه عائدة إلى الطفولة وإلى الديار.

لم تأتِ سلوى على ذكر السلحفة ربما متعمدةً، ونسيت حسيبة أن تشكرها على اهتمامها بها، ووضع خضار لها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(أنا سلحفاة صغيرة لا تتكلم. سلحفاة وحيدة وسط بشر كثيرين. رأسي صغيرة وفمي مثل فم السمكة، ولا أسنان لي بعد مثل سمكة صغيرة فكيف أتكلم. نحن السلاحف لا نتكلم. أتكلم معي.. داخلي، فلا يصدر عني صوت ولا يسمعني أحد. من ينظر إلى عينيّ يرى أني أتكلم باطنياً مع الماضي والآتي، مع الفراغ والامتلاء، مع الغبار والشعاع، مع الكائنات القريبة ومع أهل جنسي، لكنهم جعلوني أتكلم.

كما يضعوني داخل الكرتونة كما يخرجوني منها، وكما يضعون لي الطعام والماء، كما يتفرجون عليّ، كما يندهشون لوجودي بينهم دون أن أملك مقاومةً ولا اعتراضاً، فقد جعلوني أتكلم. احتسَبوني تكلمت. لا أدري إذا كنت تكلمت أم لا.. هم أصحاب القامات العالية والأيدي الطويلة والأحجام الكبيرة والأقدام الضخمة، يقولون إني تكلمت.

هم أحرار، وأنا حُرة.. تحت درعي ألاحظ صامتةً ما يجري حولي. صمتي صلب مثل درعي. أتذكر وأحلم بما أشاء، لا أحد يعرف بماذا أفكر وماذا أنوي. كلنا كذلك نحن السلاحف، نتكلم معاً بنظرات العيون، بمد الأقدام وسحبها، نَبُث الإشارات بالتقرب

fb/mashro3pdf

والاحتكاك من بعضنا، وقد وضعتمونا مع فئة الزواحف: مع السحلية والعقرب والدودة والأفعى والخنفساء. نحن من نملك من العناد ما يجعلنا الأطول عمراً في مملكة الطيور والحيوان، نطير في الماء ونَدِبّ على البر، وهو ما لا يُحسنه عمالقة منكم ولا حيوانات البحر. مع ذلك تتذكرون فقط حكاية أرنب سريع سبقته سلحفاة بطيئة، ونحن نقطع جبالاً وبلاداً ومحيطات لا تقطعها الأرانب ولا الخيول، وما نحن في عيونكم إلا زوَاحف تزحف زحفاً.. كأن البشر الذين أطلقوا علينا هذه الأوصاف، يطيرون ويناطحون الغيوم.

لا نؤذي أحداً من الكائنات، لا نتدخل في شأن أحد، فيكون ذلك مدعاة لإيذائنا.. بالاستخفاف بنا، واحتسابنا شاهداً على البطء والعجز.

استيقظتُ من نومي العميق نومي القديم: تكسرت جدران وخرجتُ فجأة من الدفء والعتمة إلى الضوء والهواء والانكشاف. فتحتُ عينيّ و لم أجد أمي. لم أجد أحداً. خفتُ وابتردتُ فأخذتُ أركض ملهوفةً بحثاً عنها، ورأيت نملاً وصرصاراً صغيراً وحشرات لا اسم لها لم أدُس عليها، و لم أر سلحفاةً في طريقي.

التقطني رجل طويل، وأعطاني لامرأة طويلة بدلاً من أمي. خشيت أن تقتلني المرأة وتأكلني، فالبشر يُميتون الكائنات الحية ويلتهمونها. المرأة التي التقطتني لطيفة مثل أمي. لكن المرأة تحبني قليلاً

fb/mashro3pdf

وأمي تحبني كثيراً. قلما احتككت بجسم المرأة، فهي تهرب مني ما أن أقترب منها. إذا فعلتُ تغضب وقد تؤذيني، وقلما نظرت هي إليّ. حين أنظر اليها ولا تبادلني النظرات أنكمش على نفسي وأهتف لروح أمي، وأسمع نداءها من بعيد يصلني ويترقرق في باطني، وأنام لأراها وأسمعها ثانيةً، أنا التي لا أعرف إن كان لي أمٌّ أمْ لا، فلم أر أماً لي منذ فتحت عيني على الضوء. وقد قلتُ لها، حين نظرت إليّ في عينيّ، أنتِ أمي فلم تصدقني، لم تحتك بي، وسرعان ما ابتعدت عني. خافت إذا ارتضت أن تكون أمي، أن تتحول إلى سلحفاة عجوز. السلحفاة العجوز جدة وليست أماً.

المرأة الكبيرة تحذر مني أنا الصغيرة. تخاف وتحبسني وأنا أحب الرمال والحدائق والكهوف والشمس الكبيرة، ولا يعجبني أن أرى دائماً أقدام البشر قربي أو تقترب مني. يا لتلك الأقدام السريعة والمخيفة كم كرهتها، حتى تعرّفتُ على قدمي المرأة التي تحبسني لديها، وقد أحببتُ قدميها دون سواها من الأقدام. ما أن أستشعر اقترابها مني حتى ينفتح الباب لي، أرى طعاماً وماءً أو أخرج إلى الضوء. أنا أحب العتمة وأرى فيها ما أرغب في رؤيته من أحلامي، لكني أحب الضوء أكثر. وقد سمحت لي بعدئذ أن أخرج وأتحرك في أمكنة ضيقة، وقد أحببت تلك الأماكن.

fb/mashro3pdf

أنا لا أتكلم. المرأة التي تؤويني هي التي تتكلم. رأيتها تتكلم معي. سمعت إشارات من عينيها من شفتيها ومن يدها. أجبت على الإشارات برأسي.. هززت رأسي لها مرةً ومرتين ومرات كثيرةً. يسعدها أن أهز رأسي الصغيرة لها، تتبسّم وتندهش غير مُصدقة ما تراه عيناها، وأنا أشعر حينها بالدفء يسري في رقبتي فيبهجني الدفء. أرغب في أن أهز رأسي لها دائماً لكنها قلّما تكلمني. إذا لم تكلمني لا أهز رأسي. البشر يتحدثون مع بعضهم. يتحدثون كثيراً، وهو ما يدهشني فما حاجتهم لكل هذا الكلام.. لكنهم لا يكلمون سلحفاةً بلا أمٍّ. ولو تكلموا معي فلن أعرف ماذا يريدون.

أرغب في الاحتكاك بها فتغضب وتهرب مني. أنا وحيدة لا أحتك بأحد ولا أحد يحتك بي. المرأة وحيدة مثلي لا تحتك بي ولا تحتك بأحد. لذلك أنا أضرب جدار بيتي لأتسلى، لتعرف المرأة أني امتلأت بالعتمة وأرغب برؤية الضوء، أني جُعت أريد طعاماً، عطشت أريد ماءً.. ضجرت أريد أن تصرخ بي، أن ترقص لي، أدور حولها وتلعب معي.

مرةً رأيت قطةً بيضاء أمامي.. قطة صغيرة مثلي، لعبت معي وخفتُ منها ثم خافت هي مني وهربت. لم أحب لعبها ولا أحبت لعبي، وأريدها أن تجرب مرةً ثانيةً اللعب معي، فليس لدي ما أفعله، وقد أحبها وقد تحبني. لم تَعُد. لا تريدني. لا حاجة للقطة بي، فالقطط

fb/mashro3pdf

كثيرة وأنا سلحفة وحيدة. هي زعلانة مني لأني سلحفاة ولستُ قطةً.

القطط سريعة مثل الأرانب، وأشطر منها في القفز عن الأسوار وأكثر غضباً منها. رأيت قطةً و لم أر أرنباً. لماذا لا يأتي أرنب يتسابق معي، أسبقه وأواصل طريقي بحثاً عن أمي. لو أحضرت المرأة أرنباً للعبتُ معه، وأطعمته خساً وجزراً واحتككت به، لن أسبقه إذا كان ذلك يزعله، سأجعله يفوز عليّ في السباق، يصبح بطلاً، يركب على درقتي ويهتف مثل الأبطال لأصحابه وهؤلاء يصفقون له وأبدو أني حزينة مهزومة. الأرانب تحب اللعب. أعرف، دون أن يخبرني أحد. منذ خرجت من العتمة إلى الضوء رأيت وعرفت أشياء كثيرةً، لو كنتُ مع أمي لعرفتُ أكثر. حين أكبر لن أدع سلحفتي الصغيرة وحدها بلا أم.. لن أتركها، وإذا سألتني عن جدتها سأقول لها إنها سافرت وراء الجبال البعيدة. سأقول لها إن المرأة التي التقطتني هي جدتها الثانية، عليها أن تحبها وتهز رأسها لها كلما كلمتها. لكن أقدام المرأة لم تعد تقترب مني، وحين أجوع وأعطش يشتد نعاسي فأنام، أعود إلى العتمة الدافئة أحلم بالضوء. النعاس يأخذني إلى النوم فأذهب إليه. البيات جعلني ضعيفةً غير قادرة على الحركة، لا أقوى حتى على الأكل والشرب ولا على هز رأسي).

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

1

أخذت حسيبة تنسى. حالتها تثير القلق والعطف وهي تحتفظ بذاكرة قوية، فكيف مع النسيان والسرحان.. بتّ أخاف عليها.

كانت ذاكرتها أفضل من ذاكرتي بكثير، ثم بدأت تخلط في الأشياء والأسماء والأيام. تطلب بحياء ملحاً ثم تعيده لي مرتبكة، وقد تذكرت أنه لا ينقصها ملح. تسألني كيف تعمل حلاوة سميد وهي التي علّمتني صنعها. تسألني مرةً بعد مرة عن اسم اليوم فأقول لها: الخميس فتنظر إليّ غير مصدقة. ثم تسأل لماذا لا أذهب يوم الجمعة مع أبو عوني إلى الكنيسة، مثلما يذهب المسلمون في هذا اليوم إلى الجامع. وأسوأ من ذلك أنها بدأت تخلط بعض المرات، في معرفة قطع النقود واحتسابها. لم أكن لأكشف لها عن استغرابي. كنت أغرش: أتكتم على الخطأ. وأصارحها بعدئذ، فتقول إن مخها تعبان ولا تعرف لماذا تنسى. لقد نسيت الزريعة. بالكاد تسقي الشجرات الثلاث وتتفحص لون أوراقها، وكانت تحنو عليها وتلمس أوراقها بحنان. أول ما رجَعَت طفّحتها بالماء وأخذت تنتظر انتعاشها، كأن إيناعها يتحقق في ساعة أو ساعتين. أنا أيضاً نسيت أن أسقيها. انشغلت بالتفكير في صحة حسيبة فقط.

fb/mashro3pdf

كنت أنا الأصغر منها أستقوي بها، بمعنوياتها العالية وذاكرتها التي تعمل كالساعة وأعصابها التي لا تهتز، فإذا بها بحاجة لسند وليس هناك غيري، حاجة بنت لأخت أكبر منها.

حدث مثل ذلك قبل سنتين ونصف السنة مع المرحومة الوالدة، بعد موت شقيقي الأكبر والوحيد نجيب في أميركا. كانت رجعت مبسوطةً، أقامت شهراً عنده، وشهراً عند أختي جانيت المتزوجة هناك من ابن عم لنا متغرّب، حتى أتانا خبر وفاة نجيب بجلطة بعد أربعة أشهر من عودتها. كنا ننتظر رجوعه للبلاد كما كان يفكر ويخطط كي يفتح مطعماً عندنا. دفنوه هناك على رغبة أولاده وأنسبائنا المقيمين من خمس وأربعين سنة في ديترويت، فكانت الحرقة عليه حرقتين. قلنا لها إنك رأيتِه وودعتِه، أفضل منا نحن أنا وفهدة فلم نره من خمس سنوات. نحن يتامى الأب وكان نجيب بمنزلة أخ وأب لنا.

هدّها الحزن وضيّع ذاكرتها. قالت إنها كان يجب أن تموت قبله، فالآباء يموتون قبل الأبناء. قلنا لها إن الرب أعطى والرب أخذ. يعطي ويأخذ من شاء ومتى أراد. دعوناها أن تعتبر أحفادها أولاد نجيب مثل نجيب، وهما شابان وبنت صبية ولدوا جميعا هناك. قالت هؤلاء أميركان مثل أمهم، لا رائحة للبلاد فيهم.. مع أن أمهم بنت عرب

fb/mashro3pdf

أردنية من عجلون، لكنها ولدت هناك ولا تتحدث من العربية سوى مرهبا وشكراً.

وكأن ضعف الذاكرة يضعف الجسم والمناعة، فأخذت أمنا تفقد شهيتها للطعام والشراب، وحتى للقهوة التي أمضت حياتها تشربها سواء قهوة عربية سادة أو قهوة تركي وحتى النسكافيه، لم تعد نفسها تطلبها. تطلب طعاماً تأكل لقمةً صغيرةً منه وتعافه. تطلب قهوةً، يبرد الفنجان ولا تشربه. تنام نوماً خاطفاً في أي وقت، وتستيقظ في أي وقت مثل الأطفال في أول أيامهم. أخذت تنسحب وتنكمش على حالها، لا تشارك بحديث ولا تسمع أحداً.

بعد أربعة أشهر على وفاة نجيب فارقتنا، في يوم سبت في شهر عشرة. كانت تمددت بعد الغداء (لم تتناول منه سوى ملعقتي شوربة) كما تفعل دائماً. حسبناها نائمةً، لكني حين ناديت عليها، وكنت أزور بيتنا بيت فهدة المتبنتة في الحصن، لم ترد عليّ. صلّبتُ وصرخت: إمي. لم استفق إلا بعد أن نقلوها إلى غرفتنا العلوية. أغلقوا الباب عليها بعد أن زارها الطبيب والخوري.. فارقتنا خفيةً. انسلّت بهدوء، فظلت الحياة سوداء في عيوننا، ولم نخلع ثياب الحداد على نجيب.

fb/mashro3pdf

شعرت باليتم وبأني رجعت طفلةً. ولولا خوفي من زعل أبو عوني لامتنعت عن صنع الحلويات وتناول الزفر (اللحم)، ولبقيت في صيام كبير.

في العزاء ظلت حسيبة إلى جانبي، مثلها مثل الأهل وأكثر. وقد صنعت بنفسها في بيتها القهوة السادة للمعزيات. لا تبكي فدموعها عزيزة، لكن الحزن ييبّسها فتجلس متخشبةً بلا حركة مثل تمثال. تتبادل قليلاً من الكلام مع القريبات والجارات ونساء الحارة، عن الحياة الفانية وعن جيل العتاقي الذي ذهب، وعيون الناس الفارغة التي لا يملأها إلا التراب. وأنا في الحداد لم أرها مرةً تضحك أو تبتسم كأنها هي الفاقدة، رغم أن حسيبة لم تر أمي إلا مرةً واحدةً، وكان مجرد سلام وكلام بينهما قبل أكثر من عشر سنين، حين كنا نقف على باب البيت استعداداً لنقل امي إلى الحصن بسيارة أبو عوني. تُطرق حزينةً إلى جانبي وهي تفلّي بصبرٍ العدس معي حبةً حبةً. أتخيلها تطرد شبح الحزن وتصرفه عن البيت، وهي تنكش بحركات خاطفة ورشيقة القش والحصى من العدس، وقد بدأت أنا بعد حين وبالتدريج في الفرهدة والضحك معها. والصراحة أنه كان هناك سبب للفرهدة، فقد ربح أبو عوني ألف وخمسمائة دينار في اليانصيب الخيري. أول مرة يحالفنا الحظ. وقد ساعده المبلغ في توسيع المحل. قلت له اشتر سيارةً أجدَد شوي يا أبو عوني. قال السيارة لا

fb/mashro3pdf

تصرف (تنفق) علينا، نحن نصرف عليها. المحل أولى. لم أخبر أحداً غير أم يوسف فهي بئر أسرار. لو عرفت نساء الحارة ورجالها، لما كنا نجونا من الحسد. يحسدون الواحد حتى على قذى العين. سارعت لإخبارها وتحليتها بحلوى جوز الهند التي تحبها، وقد فرحت لي من قلبها وفرحت أنا لفرحها. شكرت الله لأن سبباً استجد للخروج من الحزن على الأحباب، وإن كان ما في القلب يظل حسرةً في القلب.. بعد أن وسّع أبو عوني محله، سارع ابن حلال بفتح محل مواد بناء قريباً من محله، وتبيَّن أنه صديق قديم لأبو عوني وفسّر فتحه المحل بأنه لتجديد الصحبة. هكذا يتشاطر الناس على بعضهم .

كل مرة تقول لي: إحسبيني مثل أمك. كنت أمازحها بأن الأمهات طلباتهن كثيرة، فترد علي بأنها مستعدة لتلبية طلباتي. وأنا دائما احتسبتها أختاً كبيرةً عزيزةً. وها هي الأيام تدور وتجعل منها مثل أخت صغيرة لي.

أقول لها: أنت لا تتسلين. لا تزهزهي على نفسك. لم تعودي تطلبي جرائد. والصحيح أن أبو عوني بات لا يحمل جرائد معه إلاّ في المناسبات. وعلى رأيه فالتلفزيون عندنا فيه أكثر من مائة محطة وفيه كل الأخبار. لكن التلفزيون أيام زمان أيام ثلاث أو أربع قنوات أيام الأنتين على السطح كان أحلى وأبهج. لماذا.. لا أعرف. أبو عوني وسامي يحملان إلى البيت جرائد غير شكل، ليس فيها غير

fb/mashro3pdf

الإعلانات، لكن بدون النعي والتعازي. جرائد ببلاش. أسأل حسيبة عنها فتفاجئني بالقول، إنها ترى صفحاتها تتطاير أمام بعض البيوت وفي الشارع ويقرأها الشبان بحثاً عن إعلانات توظيف. حسيبة تنتبه لكل شيء ويحسبها من لا يعرفها ساهية لاهية.

والخياطة؟ أسألها إذا كانت تشتاق لها. وكانت في حياة أبو يوسف تتسلى بها، وما زالت عندها لليوم ماكينة سنجر. أستغرب كيف أنها حين كانت منشغلة بالمرحوم الذي ملأ عليها حياتها، كانت تجد وقتاً للخياطة، تخيط لأحفادها أو للمرحوم أو لنفسها أو لي ولم تكن تقصّر معي. وإذا حاولت أن أدفع لها شيئاً، كانت لا تتردد حينئذ في أن تنهرني، أو تهددني بأن تشتمني إذا تحدثت ثانيةً في الأمر.. بعد أن ترملت ولم تعد تجد ما تنشغل به، نسيت الإبرة والخيطان والشبّة والأزرار والعراوي والكشتبان والمقص والبطانات. أسألها فتقول إن نفسها عافت الخياطة. مرةً واحدةً.. ولهذه الدرجة؟ أسألها فتجيب إنها ليست خيّاطة أصلي، ولم تحب منذ البدء هذه الشغلة التي تُقصّر الأعمار وتفري القلب. كانت تتسلى بغيابه وفي انتظاره. مع ذلك وكي أدفعها للخروج مما هي فيه، كنت أطلب منها في أوقات متباعدة أن تُقصّر لي ثوباً أو تدرز كُمَّ قميص، فتستجيب وتجلس خلف الماكينة مثل سائق سيارة، ويصدر صوت عن الماكينة مثل صوت الموتوسيكل، ولا تترك القماش حتى تنتهي

fb/mashro3pdf

منه. بعدئذ ومراعاةً لها لم أعد أطلب منها شيئاً، وأؤكد لها أن الجاهز أرخص من التفصيل. البركة في بضاعة الصين والأصناف الجيدة من البالة (سوق ملابس مستعملة مستوردة من أميركا وأوروبا الشرقية). أنا نفسي لا أعرف من الخياطة غير تبديل الزر المقطوع.

حين ندهت عليها في المشفى الحكومي ولم ترد عليّ، خفت عليها أن لا ترجع إلى بيتها، واستعدت صورة إمي. رأيت فيها سحنة إمي رغم أنهما لا يشبهان بعضهما في شيء، فوجه أمي مستدير واحتفظ بامتلائه بعد أن بلغت الثمانين، ووجه حسيبة فيه طول. نحيل وشفاف مثل وجه طفلة. لكنهما تتشابهان في الحنان وعزة النفس.

خرجت من المشفى نحيلةً، ومع أن معنوياتها لا بأس بها فإن مزاجها لم يكن رائقاً. كانت تسعى لإنعاشه وإنعاش بدنها بتناول شراب الزهورات وحبات البرتقال. لا أعرف لماذا أعتم مزاجها، ربما لأن ابنها الثاني: طه لم يزرها. ثم بدأت حالات النسيان تظهر عندها. تذكرت أمي مرة ثانية. خفت على أم يوسف مما سيأتي، وهي وحيدة لا يدخل عليها أحد ولا تزور أحداً. لقد تعودت على الوحدة منذ وفاة المرحوم أبو يوسف لكنها كبرت الآن. قلت لها يجب أن تكوني مع أولادك وأن يكون أحدهم بجانبك، حتى شعرت بأن فتح هذا الموضوع يزعلها، وقد تفكر في أني استثقل خدمتها في

fb/mashro3pdf

شيء، فأقفلت على هذه السيرة.. لكن حالها لا يعجبني ولا يقنعني، فمن هو أصغر منها لا يحتمل ما هي فيه.

مع ذلك تفاجئني حسيبة أحياناً بأن ذاكرتها ما زالت تعمل، بل قويةٌ، وأحتار في أمرها.

لا يقلقها شيء إلاّ.. سلحفتها. تهتم بها وتراعيها، أكثر مما تعتني بحالها.

fb/mashro3pdf

2

سلحفتها..

لم أر في حياتي من قبل سلحفةً ولا توقعت رؤيتها. لا.. رأيت واحدةً في حديقة حيوان في أميركا. كبيرة مثل دب، تمشي بطيئة كأنها تحمل جبلاً على ظهرها أو كأنها دبّابة، وواحدة ثانية في مصر بنيّة متوسطة الحجم وعجوزة. ولكن من بُعد. فالواحد يرى فيلاً بحجم دار، أو أفعى طولها ثلاثة أمتار في قفص في حديقة حيوان ولا يهتم. منظر للفرجة لا أكثر. أما حين يرى حيواناً غريباً وطليقاً أمام عينيه، فالمسألة تفرق (تختلف).

حينما أحضرتها أم يوسف خفت أول ما رأيتها. خفت أن تتسبب بمشكلة، أو أنها تحمل شؤماً، ورغم أن المسكينة صغيرة قليلة، وقد يراها بعضهم مثل لعبة، فهي مع ذلك مخلوق غريب الهيئة، ناشف متحجر كأنها مخلوقة مسخوطة. لا يستطيع الواحد أن ينظر إلى عينيها مطمئناً. كما لو أن عيونها عيون بني آدمين، عيون ناطقة. قلت لنفسي أم يوسف عندها أشياء غريبة، والرب وحده يعلم لماذا أحضرتها، لماذا لم تحضر عصفوراً أو حمامةً أو عترةً، إذا كانت ترغب في تربية كائن ما.

fb/mashro3pdf

بعدئذ قالت لي إنها لم تبحث عنها بل وجدتها بالصدفة كأن أحداً وضعها في طريقي، ثم قالت إن السلحفة الحزينة هي التي كانت تبحث عن حسيبة، ووجدتها تمشي ليس بعيداً عن حاووز المياه. قالت ذلك وضحكت ضحكةً بريئةً صافيةً من قلبها. قلت لها ما دام الأمر كما تقولين، فأنتما تلائمان بعضكما: وافق شنٌّ طبقة. لم تزعل مني.. حسيبة قلبها كبير وتحب المزاح معي.

مرةً عادت إلى البيت في ساعة الظهر ومعها بنت صغيرة مخطوفة اللون عمرها أربع سنين. عثرت عليها ضائعةً تبكي في الشارع. سألتها عن اسمها فقالت الطفلة: فاطمة. أحبتها لأنها على اسم أختها الكبيرة المرحومة، التي ماتت في هجرة الـ 48 ..، وكانت تريد أن تبقيها عندها حتى يأتي أحد ويسأل عنها. عرفنا بعدئذ أن أهل الطفلة من عمّان سكان جبل التاج ، الأم جاءت للزرقا لزيارة شقيقة لها، واصطحبت البنت معها. وقد ضربتها في السوق، لأنها ألحت على شراء شيء ما، فهربت الطفلة منها مثل الطلق تولول راكضةً من شارع السعادة إلى شارع فلسطين، حتى صادفتها أم يوسف. طيّبت خاطرها وأمسكت بيدها واشترت لها بسكوت وعصيراً، وأحضرتها إلى البيت. بقيت معها ثلاث أو أربع ساعات حتى كادت الشمس تغرب. حكيت لأبو عوني، فخاف من المسألة وقال: غلط. غلط. يجب أن تسلمها للشرطة حالاً. سوف يتهمونها بخطفها، فهناك نساء يتخصصن في خطف الأطفال. جاء

fb/mashro3pdf

وسلمنا البنت للمخفر، وكانت خائفةً أن تعاقبها أمها والشرطة معاً. وقد حققوا مع أم يوسف وسألوها لماذا أخفت البنت في بيتها، وأخذوا اسمها وعنوان البيت وطلبوا منها دفتر العائلة. فقالت لهم حققوا مع أمها التي جعلت البنت تطفش (هيم على وجهها) منها. الأم المرتبكة الخائفة من زوجها الذي لم يكن معها، كانت تسمع وطلبت أن يحولوا طفلتها لطبيب كي يفحصها، وأن يتم احتجاز أم يوسف في الأثناء. وقد أبقوها بالفعل عندهم في إحدى الغرف، حتى استدعوا طبيباً فحص البنت، وقال إنها بصحة عادية..

تأثرت أم يوسف التي لم تسمع كلمة شكر، لولا أن تدخّل أبو عوني وأفهمهم أن جارهم عملت معروفاً بإيواء الطفلة واحتفاظها بها، ولولاها لتشردت في الشوارع وأولاد الحرام كثار. وزاد الأمر غرابةً حين غصت أم يوسف بدموعها لفراق الطفلة، فتصورتها الأم .. أم الطفلة أنها خطافة أولاد ودموعها دموع احتيال، أو دموع أسف لأن البنت فلتت من يدها.

عندما أحضرت السلحفة خشيت أن تكون لأحد الناس. لواحد أجنبي من الآسيويين مثلاً، فهؤلاء لديهم هوايات غريبة، ولا أحد يقتنيها في البلاد. وحين علم أبو عوني طمأنني أن السلحفة لا تهرب من أحد. فهي تبحث عن مأوى وحين تجده تستكين فيه. وليس هناك في علمنا أحد في البلاد يربي سلاحف، كما يربون أرانب. سامي قال إن بعض الشعوب مثل أهل الصين يتفاءلون بالسلحفة كما يوقر الهنود البقرة، وفي

fb/mashro3pdf

سلطنة عمان يحبونها ويقتنونها كما نقتني نحن القطط، وليس هناك في دين المسلمين أو المسيحيين ما يحرم اقتناءها، وهناك من يقول إن لحمها يؤكل. أنا لا آكل لحمها لو صار في الدنيا مجاعة. حتى لحم الخنزير لا آكل منه، نفسي لا تطيقه. وبسببي لم يعد أبو عوني ولا الأولاد يأكلونه. ذلك أعجب أم يوسف التي بالكاد تتناول لحوماً. مرةً أحضرت لها قطعة ستيك مع بطاطا، لكن بدون الكتشب الذي يموت فيه الشباب ولا نحبه نحن الكبار. سألتها: ما رأيك؟ أجابت بعد تردد وغمغمة: لحم البقر لا بِنذَم ولا بِنشكَر (لا يُذم ولا يُشكر)، فقلت لها على سبيل المسخرة بعدما استفزتني: المرة الجاي (التالية) سأحضر لك خبيزة، فقالت سأصنع لك شيشبرك، وهي أكلة من قطع العجين الصغيرة التي تصنع على شكل مخروطي، ومحشوة بلحم مفروم. و لم يعد أحد يطبخها.

كل ذلك مقبول، أما السلحفة فلم تعجبني. فيها شيء من السر، ومن هيئة البني آدمين. ظلت نفسي تنقز منها، مع أن قلبي يرقّ للحيوان الضعيف.

مع ازدياد تعلق أم يوسف بها، خفت أن يكون حدث لعقلها شيء. فهي لا تطيق الحيوانات مثل الكلاب والقطط، وأحياناً لا تطيق نسوة عاقلات. ويجننها وجود صرصور أو فأر. حتى الأطفال قلما تطيقهم، وقد آوت البنت الضائعة بدافع الشفقة وليس حباً بالأطفال. فما الذي حملها على جلب هذه المخلوقة؟ هاتفتني نفسي مرة أنها تؤوي السلحفة وتحدب

fb/mashro3pdf

عليها بدافع غريب. غريب كأنه شيطاني، هي المؤمنة التي تواظب على صلاتها.

لم أقل لها ذلك. لم أُجن في عقلي حتى أفاتحها بهذا الوسواس. كان خوفي أن يكون قد أصابها شيء في عقلها. ثم أقول لنفسي: المجانين المهاويس هذه الأيام أكثر من العُقال، وأم يوسف كافية شرّها خيرها، ومهما شطّت وشطحت تظل أعقل منهم.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

3

لم تمض ثلاثة أيام على اقتنائها هذه المخلوقة، حتى بدأت أم يوسف تمتدحها لي كمن يمتدح إنساناً يحبه: شاطرة، ذكية، هادئة، هانئة، نغشة، لا تؤذي ولا تضر، ليست متطلبة.. تكتفي بقليل من الخبز والخضار والماء. تستيقظ معي في الفجر وتراقبني وأنا أؤدي حركات الصلاة، وتهز رأسها في ختام التشهد، وتلاعب أم يوسف بالاختباء كما كنا نفعل في الصغر في لعبة الغماية (الاختفاء) وقد تفعل السلحفة ذلك متعمدةً، لامتحان مدى محبة أم يوسف لها. وأنها لا تنطق ولا يصدر عنها أي صوت، وقد تفعل ذلك عندما تكبر وتتعلم (تتعلم ماذا وكيف؟)، وأنها باتت حرة طليقة في البيت مثل أهل البيت، وتعرف طريقها إلى مأواها دون أن يدلها أحد عليه، وليس لدى أم يوسف ما تخافه منها.

لا تقول حسيبة بصريح العبارة، إنها تحب سلحفتها وتتعلق بها. حسيبة داهية تدرك أن ذلك يثير الاستغراب والشك، وهي أذكى من أن تبوح بما في نفسها.

فاتحتني مرة وكأنما خرج الكلام منها دون قصد منها، أنها تتبادل الحديث معها، وأظهرت لي أن اعترافها هذا مجرد مزاح منها. وحين

fb/mashro3pdf

انتبهت لما قالته، استدركت بالقول إنها تتسلى معها. حكت معها كلمتين، مرة أو مرتين. وكنت أعرف ناساً يكلمون حيوانات. ليس في أميركا التي تنام فيها الكلاب مع أصحابها على سرير واحد في غرف النوم، حتى أنه كان في بيت المرحوم نجيب أكثر من كلب، بل في بلادنا: هناك من يتحدثون إلى الخيل. وإلى القطط ذوات السبع أرواح. ليس حديثاً بمعنى الحديث أو سواليف طويلة، بل فضفضة سريعة على الماشي كمن يخاطب فرسه وهو يطبطب على رقبتها الطويلة: والله إنك أصيلة بنت أصيلة. مشوارنا طويل اليوم إن شاالله ترفعي راسنا. وكمن يخاطب بقرة: صبّح الصباح، قومي يا بقرة أبو رباح.

المرحوم والدي لم يكن يكلم الجدي العسلي ذا الفرو الناعم، الذي اشتراه صغيراً من راعٍ عابر سبيل بثلاثة دنانير في تلك الأيام أول الستينيات، وبقي عندنا نحو سنة ونص. كان يلاعبه ويطوف به في بستان بيتنا أيام الخميس والجمعة. يقطف له أوراق شجر من اللوزة والمشمشة والتوتة، يرفع ذراعه ويجعل الجدي يقف على قائمتيه الخلفيتين، ويطعمه بيده. يفعل ذلك مرة ومرتين ثم يحني أبي جسمه ويدني الأوراق من فم الجدي حتى لا يُتعبه. وأحيانا يُدلي الغصن كي يكون قريباً من الجدي. وقد يلاعبه بتقريب وتبعيد أوراق الشجر عنه فيأخذ في النطنطة. وكأنما يدرك الجدي أن الامر مجرد لعب، فحين

fb/mashro3pdf

كان أبي يرفع ذراعه ويده مضمومة، لكنها فارغة لا تضم شيئاً مما يشتهي الجدي مضغه، فقد كان مع ذلك يتنطنط هانئاً مثل طفل راقه اللعب، ولم يكن والدي المتقاعد من الجيش أقل هناءً، فقد كانت تاخذه نشوة اللعب معه لدرجة محاولة مناطحته مناطحةً خفيفةً.

حين ذبحنا الجدي في عيد الفصح الكبير، رفض أن يأكل من لحمه، ونهرنا عندما دعوناه لتناول المعلاق. كنت أشعر على نحو غامض وأنا بنت 12 أو 13 سنة، أن الوالد كان يفكر حينئذ بالحياة والموت. ليس حياة وموت البشر فقط، بل حياة وموت الحيوانات أيضاً.

لكنه لم يكن يكلم الجدي. وحين ذبحه جار لنا بناء على طلبنا، امتنع أبي عن الكلام في ذلك اليوم، كأنه زعل منا.

أما الحكي مع السلاحف ما صار.

تقول أم يوسف وأشعر حينها أني لا أعرفها، أو أن معرفتي بها جديدة وبسيطة:

أتسلى معها وهي تسمعني. تظل تسمعني لا تتحرك من مكانها، حتى أنتهي من كلامي. وحين يصعب عليّ أمر وأحتار فيه، أسألها. لا تجيب، تهز رأسها إذا كانت موافقةً على ما تسمعه مني، وإذا لم توافق تظل جامدةً مثل الصنم لا تهز رأسها. أصبحت أفهم عليها. أسألها عن يوسف وطه وماجد. هل سيأتي يوسف هذه الصيفية. هل

fb/mashro3pdf

يحب طه أمه كما تحبه وتتذكره. هل ينجح ماجد ويترقى في عمله ويشتري سيارةً. هل يشتري جيراننا دار (عائلة) أبو عوني داراً جديدةً. أسألها عن اليهود متى يرحلون من بلادنا ومتى يشبعون من القتل، وحتى متى تقف أميركا مع الظالمين. وهل شتاء هذا العام سيكون أفضل من سابقه. هل تهدأ معدتي. هل سيدخل لصوص إلى البيت مرة أخرى. هل سأرى أبو يوسف قريباً في المنام؟

أشياء مثل هذه اعترفت لي بها. وطمأنتني أننا سنشتري داراً جديدةً في الزرقا في عمّان في الحصن.. الله أعلم. وقالت سيكون لكم جيران جدد وتنسين جارتك حسيبة.

وفي اليوم الخامس على اقتنائها لها ندهت عليها بِس. بِس، سمعتها وزحفت نحوها، وكنا في الفناء أمام بيتها ساعة عصرية نتناول معجنات سبانخ وجبنة مع شاي بنعنع. انحنت على سلحفتها وسألتها وقد أخذت تحدق في عينيها: هل تتزوج دلال؟ فهزت السلحفة رأسها إلى أسفل مرة ثم مرتين. مع أني انشرحت لما سمعته ورأيته و لم أكتم ضحكة انبساط، لكني خفت منها. فقد هلّت دلال في الوقت نفسه ودخلت علينا، وسرعان ما ارتبكت وانخطف لونها وارتبط لسانها رغم أنها لم تسمع شيئاً، وقد نسيت ما الذي جاءت من أجله. لم أعرف إن كانت روح إنس أو جن أو ملاك تتلبس هذه المخلوقة. أم يوسف ضحكت ورحبت بدلال التي لم تلبث أن انصرفت بعدما

fb/mashro3pdf

أخبرتُها أني قادمة، وقالت حسيبة إن سلحفتها لا تكذب وأشطر من الفتاحات (المنجمات). فَشَرن. ثم قالت وقد غلبها الأسى: لا أسألها عني وعما ينتظرني، فلم يبق من العمر مثل ما مضى، بل أسأل رب الأنام حسن الختام. لم أعرف معنى الأنام فقالت لي إلهم العباد. فقلت لها كلنا نؤمن بالرب وكلنا أحبابه. وسألتها إذا كانت تصدق حركات رأس السلحفة وتأخذها بجد، فارتفع صوتها قليلاً مؤكدةً أنها تتسلى، وأن هذه التسلية أحسن من نميمة الناس على الناس.

لو كان لي قلب حديد وبال فاضي، ولو كنت وحدانيةً مثل حسيبة لربما أحببت السلحفة والتهيت بها. الغريق يتعلق بقشة، والفاضي يعمل قاضي.

لا، أكيد أني أحتاج لشيء آخر، حتى أستأنس بهذه المخلوقة وأدرك سرّها. شيء لا أعرفه ولا يستحق الانشغال به.. إذا أفلحت بعدم التفكير فيه، فمن يجاور أم يوسف خمسة وعشرين سنة بحلوها ومُرها، تنتقل إليه العدوى دون أن يدري ويتطبّع بطباعها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

4

عاودت حسيبة المشي، لكن بوتيرة أقل من ذي قبل، مسافةً أقصر تستغرق وقتاً أقل، وهمّة أضعف. تمشي ساهمةً مع انحناءة مستجدة في أعلى ظهرها، تنظر إلى المرئيات، إلى التراب والإسفلت، إلى الباعة المتجولين والثابتين في محلاتهم الصغيرة، إلى السيارات العابسة كوجوه سائقيها، إلى قطط شاردة وثنائيات الأطفال، تنظر وقلما ترى.. وما تراه تتأفف منه. أهل الحارة باتوا يعرفون مزاجها المتعكر. تشتري مربى برتقال وتتذكر بعدئذ أن ما كانت تعتزم شراءه هو خيار. تترك للبائع أن يختار لها، تنقده الثمن دون أن تحدق إلى عينيه تحديقة المساومة على السعر. لا تطرح سلاماً، وترد على السلام بعد أن يكون مُلقي التحية قد تجاوزها. لا تتأخر في العودة وكأنما تنتظرها أسرة في البيت. يمر يوم أو يومان تعتصم فيهما بالبيت مع الأشباح والأرواح، ومع سلام قلبها.. السلام الذي تقلقل. وتشغل نفسها بالغسيل، أو تقشير حبة بطاطا أو باذنجان حتى لو لم تطبخها. وفي محاولة الاستئناس بضيفتها السلحفة.

أنا تعلمت منها الخروج كل صباح تقريباً. لسبب أو دون سبب. إذا لم يكن هناك سبب نخترعه نحن النسوان. لاحظ ذلك أبو عوني

fb/mashro3pdf

وقد احتج في البداية على المرواح والمجيان (الذهاب والإياب). حذرته من الروماتيزم الذي قد يصيب مفاصلي ووجدته يحسدني على المشي وهو الذي يعاني من الدوالي في الساقين لكثرة الوقوف في المحل. ثم أدرك أنه ليس هناك ما يستحق الاحتجاج من طرفه.

مشاوير قصيرة لشراء أغراض البيت، أو للتصبيح على فلانة والسؤال عن صحة زوج فلانة، أو الفرجة على البضائع والتعرف على الأسعار، من أجل الشراء بعدئذ في المناسبات. التجار أنفسهم اعتادوا على هذه الزيارات، فأن يكون هناك زبون في محل الأحذية أو النوفوتيه ولو لم يشتر، أفضل من أن يبقى البائع يهش الذباب. الزبون الفضولي مثلي يجذب زبوناً يعتزم الشراء. أنا أعرف هذا. وبعضهم عيونهم فارغة تستطيب قدوم النساء. لكن الواحدة مثلنا تخرج للحق كي ترى النور وتستنشق الهواء، لتشهد على الحركة، لتتحرك مفاصلها ولا تتعفن في البيت. كي ترى وجهاً جديداً أو وجهاً قديماً طالت الأيام ولم تره. والسبب الملل من قعدة البيت وبخار زيوت المطبخ ومن نفض الغبارعن الأثاث ورائحة كيماويات سائل الجلي وتنظيف الحمامات، ومن الانتظار. المرأة في البيت تظل تنتظر إلى ما شاء الرب.

أخرج مع أبو عوني أيام الأحد للكنيسة، لكن ليس كل الآحاد. حسب الشغل والهمة والطقس والفضاوة (الفراغ). يقول إن الخوري

fb/mashro3pdf

يُقدّر ظروفه، وعندما يتغير الخوري الذي يقدر ظروفه يواظب على المجيء إلى الكنيسة كي يتعرف على الخوري الجديد، وقد يعزمه (يدعوه لتناول وجبة)، ويلتمس منه تقدير ظروفه. والخوري لا يرغم أحداً على المجيء، وأبو عوني يُشقيه العمل. نسمع موعظةً جديدةً مفيدةً أو قديمةً مكررةً، ونصلي أو ننذر نذوراً، أو أبكي قليلاً على من رحلوا وعلى نفسي، ونرى بعض معارفنا وقد كبروا، ونتعرف على أناس جدد، لا نلبث أن ننساهم وينسونا.. الناس لا يتغيرون سواء سمعوا موعظةً أم لا. اعترفوا أم لا. وهم مهمومون بسبب أو بدون سبب. ذهبت المسرّة من القلوب. في الدخول أو الخروج يتوقفون عند الباب، ليروا سيارات بعضهم أكثر من رغبتهم في رؤية وجوه بعضهم بعضاً.

حسيبة تقول إنها تخرج لترى "وجه ربها". والرب في قلبها، لكنها تخرج من الضيق والضغط. تخرج من جلدها ومن الملل الأبدي. ملل مثل كتمة على الصدر، ومثل حفر الكوسا وحفر النمل في العظام.. فكيف وقد بدأت معي هشاشة العظام وأنا ثقيلة، أكلت أو لم آكل. يعلم الله أية أمراض مخفية عند حسيبة.

قلما تخرج معي هذه الأيام، وإذا ترافقنا فإنها لا تتكلم في الطريق، وإذا كلمتها تهز رأسها بكلمة أو لا تجيب، ولا تلتفت إليّ. فلا أعرف إن كانت تسمعني أم لا، وكأني أمشي وحدي. ومشيها صار

fb/mashro3pdf

بطيئاً.. ليست مستعجلةً على أي شيء، وأنا يتعبني المشي البطيء. وقد أوضحت لها أن مشيتها صارت مشية جنازة. فسألت جنازة من؟ فاجأني سؤالها، فطيّبت خاطرها بالقول: جنازة الأعادي. أعجبها ما سمعت، ثم تنبهت إلى أننا لا نشاهد على التلفزيون، إلاّ جنازات أولاد عرب في فلسطين والعراق. وافقتها. وقالت اليهود قلما يموتون في بلادنا. حتى موتة (ميتة) ربهم، موتة طبيعية، قلما يموتون. وذكرت اسم شامير وبيريز. أعرف الخبيث الثاني الذي يرش على الموت سكر، أما الأول فنسيته. وافقتها وتذكرت أن مسيحيين منهم أنسباء لنا في الأراضي المقدسة، يضغطون عليهم و"يخنقونهم" في القدس وبيت لحم وبيت ساحور وبيت جالا كي يهاجروا، ومنهم من هاجر إلى استراليا وكندا وأميركا، وكنائس هناك بدل أن تسعفهم على الثبات ساعدتهم على الهجرة من أرض الأجداد، فيصبح بلد سيدنا يسوع بلد من صلبوا المسيح. نعم نتحدث في السياسة أنا وحسيبة.. لِمَ لا، لكن في البيت وفي ساحتة الصغيرة، وليس في الطريق. وأعجبني في النهاية أن آخذ حريتي وأمشي وحدي.

fb/mashro3pdf

5

لم تعد تخرج. حَبَسَت نفسها في البيت، لم أنتبه إليها إلا بعد خمسة أو ستة أيام. كنت أطلطل عليها و لم تقل لي إنها كفت عن الخروج.. حتى طلبت ذات يوم أن أشتري لها بضعة أغراض خفيفة: بندورة، كبريت ،كزبرة، خبز وحليب. قلت لها وقد شككت بوضعها: لماذا لا تخرجي أنت وتشتري. لم تجب. لم تكن معتادة أن أرفض لها طلباً. لم يسبق أن رفضت لها طلباً، و لم أكن أنوي الرفض هذه المرة فقد اشتريت لها ما أرادت، وسألتها إذا كانت تعزّ عليها السلحفة لهذه الدرجة ويصعب عليها مفارقتها. لم أكن جادةً فهي تعزّ ضيفتها منذ جاءت بها، وقد ظلت مع ذلك تخرج كل يوم تتفقد الشوارع والمحلات مثل مفتشي الصحة والبلدية. أردتُ أن أنكشها وأحرقصها، فأشاحت بيدها اليمنى إشاحةً خفيفةً، أمارةً على عدم المبالاة، وبدت متشككةً ضائعةً، وقد ارتخت جفونها وتهدل عليها ثوبها.

بعد سهو قليل أخبرتني إن السلحفة ذبلانة. قومي شوفيها: لم أقم. لم أتحرك نحوها، وأنها قلما تخرج وقد بدأت بياتاً شتوياً كما أخبرها ابنها ماجد عن هذا البيات، وكنا على أبواب الشتاء،

fb/mashro3pdf

واشتكت أنها عثرت على السلحفة وأحضرتها في وقت غير مناسب. لو كانت تعرف ربما لم تحضرها، فهل بيت أبو يوسف تكية للسلاحف، تأتي الواحدة منها لتنام نومها الطويل ويعلم الله متى تستيقظ. ذكّرتُها أن شتاء الزرقا ليس بارداً إلاّ في الليل، فقالت: إحكي لها.. أخبريها. يبدو أنها حكت لها وأخبرتها و لم تُصدقها، وتريدني أن أتدخل لعل السلحفة تسمع مني. واستدركت هي أن الشتاء يظل شتاءً وأيامه ليست كأيام الصيف، فشجعتني بجوابها أن أسألها إذا كانت هي قد بدأت في بيات شتوي أيضاً. لم تضحك كعادتها و لم تلتفت إليّ التفاتة استفسار لتتأكد مما سمعت، و لم تزعل. ظلت ساهمةً وبعيدةً عني تنظر في الفراغ. قالت بعد قليل إنها اشتاقت للأحباب.. وأنها تترك السلحفة لحالها: ماذا أفعل لها وهي تنام نومة أهل الكهف. فصححت لها: أهل الكرتونة، إشارةً إلى مأواها فضحكت ضحكةً خفيفةً، ثم أضحكتني حين قالت إن السلحفة: مثل العجائز مثل حلاتي (حالتي) تبحث عن الدلال ولا تدلل أحداً. تريد وَنَس ولا تُونّس، فأبلغتها أنها هي الأنس كله وأنها تنير الحي، وأني ألجأ اليها حين تُظلم نفسي. فوضعت راحة يدها الصغيرة على يدي وضغطت عليها، واستشعرت دفء يدها ومشاعرها، وكدت أشعر أني أستعيد أمي.

fb/mashro3pdf

أخبرتني، وكنا ساعة عصر، أنها باتت تفتح التلفزيون بعد المغرب (بعد صلاة المغرب)، لكنها تسهو عن صوته وتدير ظهرها للشاشة تحدق إلى الحائط وفي الخزانة. يسرح ذهنها ولا تسمع، تنتبه فجأةً على الصوت وتتخيل وهي تنظر إلى الحائط أن الأصوات تصدر من خارج البيت، ثم تتخيل أغراباً يتكلمون في البيت. واستذكرتُ أشخاصاً يذهبون إلى شاطىء البحر في العقبة من أجل النزهة، يديرون ظهورهم للماء، ويزعمون أنهم أمضوا الوقت على البحر. تتخيل وجود أغراب فتجفل.. تحاول أن تُصغي، لكن الكلام كلام التلفزيون يتزلق عن أذنها وذهنها، لا يشدها ولا يعنيها، حتى أخبار الثامنة على التلفزيون المحلي، لم تعد تستهويها منها سوى أخبار الأسواق والنشرة الجوية. لا هي ولا "الجزيرة" الطنانة الرنانة، ولا المسلسلات "الكذابة"، ولا أغاني وجع الرأس. المشكلة قالت إنها حين تغلق التلفزيون يحِل صمتٌ ثقيل، كأن ضيوفاً كانوا يملأون البيت بأنفاسهم وأصواتهم، خرجوا جميعاً دُفعةً واحدةً وتركوها منفردةً، فتعود وتستوحش. لا مع سيدي بخير ولا مع ستي بخير.

تفتح الجهاز من جديد بلا صوت، مكتفية بالتحديق إلى صور رجال ونساء عرب وأغراب يتحركون، يتكلمون.. يتمايلون يأكلون يبدلون ملابسهم، يقتربون من بعضهم ويلامسون بعضهم بعضاً، يتعانقون وينامون معاً كأن أحداً لا يراهم وكأن الضوء مطفأ. وغير

fb/mashro3pdf

مصدقة، تتخيل مبتسمةً مع نفسها أهم داخل التلفزيون قد يلحظون تحديقها إليهم، قد يروها كما تراهم.. لِمَ لا، أليست لهم عيون؟ فتنكمش قليلاً على نفسها، تتنهد وتنظر إلى أبو يوسف في الصورة، لعله يُسعفها. لا تتغير نظراته القوية الثابتة: نظرات رجل ينظر إلى رجال وليس إلى امرأته. وتعجز عن لفت انتباهه. تمسح على شعرها، تطمئن على وهج مدفأة الغاز ليس بعيداً عنها، وتتساءل إن كانت السلحفة ابتردت في الخارج أم لا، فلا تعرف. هل تشتاق الحزينة إلى أهلها أم لا تتذكر شيئاً بعد. تَقلب راحتيّ يديها أمامها وتنظر إليهما دلالة الوقوع في الحيرة، وتوكل أمرها للسماء. تفكر أن سلحفتها حديثة الولادة، وأنها هربت بعدما فقست وخرجت من البيضة ولن تجدها أمها. لن يلتقيا مرة أخرى والسبب: حسيبة التي خطفت الصغيرة.

تخبرني بهذه السواليف، أضحك وأستغرب وأدعو لها الرب أن يحفظ عليها نعمة العقل. أدخل معها البيت فأتلقى رائحة رطوبة لم أعهدها. أفتح لها الشباك فلا تزول الرائحة. كأن الأبواب والشبابيك مغلقة والبيت مهجور. أما المطبخ فلا رائحة طبخ ولا نفخ فيه، لا رائحة غلي ولا قلي فيه. فكيف تهجر حسيبة البيت وهي فيه، كيف تهجر الحياة البيت وحسيبة فيه..؟

fb/mashro3pdf

6

أنّبني أبو عوني لانشغالي بحسيبة، بأكثر من اهتمامي بالبيت وبدلال. لم يقل إني لا أوليه كبير اهتمام، وأعرف أن هذا ما يُضمره. ما زلت أطبخ له ما يشتهيه، أغسل وأكوي ملابسه ما عدا البدلات، وأتجمّل قبل النوم، وأهيئ له الأرجيلة ساعة المغرب، ومعها كأس عرق وخيار ولبنة، إذا كان مسلطن والشغل في المحل ماشي، فيكافئ نفسه بتدليل مزاجه. من حقه. حسيبة تشم من بُعد الرائحة الفضّاحة لما يسميه شاربوه حليب السباع، وأقول لها في اليوم التالي مازحةً: غليت له كباية يانسون، فترد عليّ: كل واحد على دينه، الله يعينه.

أشرح لأبو عوني أني أتسلى مع الجارة وأعطف عليها، وطولة الجيرة والعشرة جعلتني أشعر بأنها من الأهل. فيوبّخني: هل أنت بلا أهل، أليس لك أهل غيرها؟ فأقفل فمي وأبلع حسرتي بانتظار أن يروق، فالكلام معه وهو معصب (في حالة عصبية) مضيعة للوقت ومحرقة للأعصاب. أما حين يهدأ وحين تكون أموره معدولة، فيدعوني أن "لا أنسى جارتنا الأرملة". أحب حسيبة لأنها لا تلوك سمعة الناس ولأنها حنونة، هادئة وقوية، لا لأنها أرملة. ليست لديها مسكنة الأرامل، الترمل لم يكسرشوكتها بل جعلها أكثر رقةً ولطافةً.

fb/mashro3pdf

لو وقع زلزال لا سمح الله لما أخرجها من هدوئها، لما هزّ ثباتها. مش مِحرزة على رأيها. لأبو عوني مذهب آخر. يزعل بسرعة، ويرضى بسرعة لكنه يكتم الرضى حين يرضى. ربما لأنه رب بيت وصاحب مسؤوليات. وأيضاً لعمله في التجارة وعلى رأيه فقد ازداد في هذا الزمن الأغبر المحتالون، وعددهم من يومهم كبير، وقلّ عدد الأوادم وهم في الأصل قلة، بما يسبب له صداعاً شبه دائم ويورثه انحراف المزاج. وأتساءل متى ينتهي من ذلك، متى يسترد نفسه ويستريح، وقد جاوز الستين؟

عملت أنا معلمة ابتدائي لعشر سنوات، معلمة رسم، وأسُد نقص معلمة لم تُعيّن أو غائبة، كنت أتعب وأرجع إلى البيت مهدودةً مبحوحة الصوت، ثيابي معفرة بالطباشير وواجبات البيت تنتظرني. كنت أشعر بنفسي، رأسي مرفوعة وأعمل جمعيات (مجموعة تجمع أموالاً من أعضائها وتمنحها كل مرة وبالاتفاق، لأحدهم) وأشتري ما أريده من كماليات وخصوصيات النسوان وحتى من حاجيات البيت، التي لا يقتنع ابو عوني بالحاجة لها: سجادة، مزهرية، برداية (ستارة) طنجرة ضغط، ساعة للولد.. شنطة يد للبنت، وكنت أرى ناساً أكثر، ولي رأيي في التعليم والإدارة وتربية الأطفال والمراهقين وفي الموسيقى، وحتى في السياسة. في زمن لم يكن أحد فيه يجرؤ أن يفتح فمه، كنت أجهر برأيي لأولياء الأمور وللمديرة والمعلمات،

fb/mashro3pdf

وأبو عوني يسألني هل أنت معلمة أولاد وبنات، أم سياسية، ويذكرني بأن نجيب طفش من اليلاد بسبب السياسة وغلق أبواب العمل في وجهه. حدث ذلك بعدما حاول شرطي أن يتهمني بالحزبية..وكأنها تهمة، لأن علامات إحدى بناته عندنا في المدرسة زي الزفت. وقلت للشرطي: الأب لا يحب بنته بهذه الطريقة ويتبلّى على الناس. مثلك مثل من يتشدقون بمصلحة الوطن، وهم لا يحبون إلا كراسيهم وجيوبهم. لكن الخلفة (الإنجاب) جعلتني أستقيل وأتفرغ لعوني وسامي ودلال وأبو عوني. لم تكن الأنانية طافحةً كما هي هذه الأيام، وقد صار الناس في زمن الديمقراطية يعبدون المال، كأنهم جميعاً على دين واحد ومِلّة واحدة وليسوا من شتى الأصول والمنابت.

في تلك الأيام، أيام اللولو كما يقال، لم تكن صحبتي مع أم يوسف وثيقةً. كنا جيران نجامل بعضنا فقط، نسأل عن بعض في المناسبات وقد لا نسأل، حسب التساهيل. كانت هي تنشغل بأبو يوسف وابنهما ماجد. أما بعد أن لزمتُ البيت فقد تفرغتُ للدواوين، للقيل والقال وخذ وهات. لم آنس لجارة وسيدة بيت مثلها. ورغم أنها أكبر مني، فإن روحها شابة أكثر شباباً مني.

الآن تغيرَت. بدأت تهرم. ثقل سمعها وضعف نظرها. الزمن لا يرحم الوحدانية (الوحيدة) في بلادنا وفي كل الدنيا، وقد أحنى الزمن ظهرها. حتى أنا وزوجي موجود وسامي ودلال يملآن البيت، أشعر

fb/mashro3pdf

بعض المرات بالوحدة، وبأن الدنيا سكّرت (أُغلقت) في وجهي، ولا أجد من أكلمه وأفضفض له، فأكثر من التحدث مع نفسي وأخاف على نفسي، وأدق الباب على حسيبة التي تسمع مني ولا تستغرب ما تسمعه، حتى حين همست لها مرةً وكنت زعلانةً أني لم أعد أطيق أبو عوني، لم تُفاجأ ولم تستغرب رغم أني لم أبُح لها من قبل بمثل هذا الكلام، وكأنها تعرف فقد ردت عليّ بهدوء، بأن زوجي قد يكون مثلي لا يطيقني. بهذا أسكتتني وجعلتني أفكر، أراقبه وأراقب نفسي. هكذا هي الحياة: تشعر بالظلم، وتتفاجأ في الأثناء بأن أقرب الناس إليك يسجل أخطاءً عليك.

الجلوس إليها أفضل من الذهاب إلى جمعيات نسائية، فمن يريد عمل الخير لا يعدم طريقةً لعمله، ليس عن طريق الكنيسة فقط، فهناك مائة طريق وطريقة، بدون شوفة الحال في الجمعيات: هذه زوجة فلان وهذه ابنة علتان وهذه أخت حضرته، وجدول أعمال: اشترينا سكر ومنفضتين سجائر وممسحة للمدخل وحشوة للكباسة وغيّرنا الحنفية القديمة، وسيزورنا الخميس عضو البلدية ابن خالة زميلتنا أم رائد، ونطلب منه أن لا يقف أحد من الشباب قريباً من باب الجمعية، وأن يضيئوا لمبة عمود الكهربا القريب، والمحسن الكريم تبرع بمدفأة كهربائية ثلاث شمعات، كلفة استهلاكها من الكهرباء في الشتوية أكثر من سعرها، والمحسن الثاني تبرع بعشر جرزايات

fb/mashro3pdf

(بلوفرات) ستوك لا هي شتوي ولا ربيعي، لا هي ولادي ولا بناتي، وفلانة غائبة كثرت مشاويرها المسائية إلى عمّان هيّا ننم عليها، ونشكر الفنانة الموهوبة لأنها أهدتنا لوحةً من رسمها وهو رسم منقول عن صورة ترسم التلميذات أفضل منه، وانتخبوا فلانة وكلوا منها جاتوه لا يؤكل.. وتمتعوا بعده بالمغص، وشوفوا ماذا لبست المزيونة اليوم وبماذا تمكيجت، وكيف أن العمر لا يبدو عليها مع أنه يبدو عليها.

اشتغلت معهم سنةً، وتركت لغيري تجربة حظوظهن في المنظرة وتقطيع الوقت. كان ذلك منذ 12 أو 13 سنة. زمان، نسيتهم ونسوني، يمكن الأمور تحسنت أو ساءت الله أعلم، يمكن ظلمتهم ، وقد خطرت ببالي جمعية انضممت إليها.. ولا أعرف ماذا يجري في غيرها. لماذا جئت على ذكر الجمعيات، من فتح سيرتها. ألم أقل إني أصبت بالعدوى.. عدوى السهيان؟

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

7

عندما أخذت تراجع المشفى لثلاثة أيام متتالية، بعد أسبوعين على وقعة الانفلونزا، وبدا ابنها ماجد متوتراً وهو ينقلها بسيارته بعد أن أصبح يمتلك سيارةً، عرفتُ أن تعب حسيبة ليس تعب انفلونزا. كنت أسمع صوته وهو ينقلها ويعيدها إلى البيت: شدي حيلك سليمة إن شا الله، مش عوايدك (ليست عاداتك) مشافية إن شاء الله، أما هي فلا يصدر صوت مسموع عنها ما يجعل قلبي ينقز.

في مثل هذه الحالات لا تحب حسيبة أن يراها أحد، أو يكلمها مخلوق. حتى الأطباء والممرضات بالكاد تتحملهم. أنا أعرفها، تعزّ عليها نفسها، ومن الأفضل بالنسبة لها أن تكون موضع كراهية، من أن تثير شفقة أحد عليها. هناك جارات يكرهنها بغير سبب، ويسلمون عليها إذا سلّموا ببوز ناشف (وجه مكفهر)، ولا تعيرهم انتباهاً.. تستشعر نفورهن منها، هز كتفها دون أن تهتز نفسيتها وتقول: أحسن. أسألها: لماذا أحسن يا أم يوسف وأنت تحبين الناس؟ فتجيب: من يكرهك بدون سبب لا أسف عليه. ولولا أننا نتجاور، ولولا أني أحس بالحركة عندها، كما تنتبه هي لأي حركة عندنا، لما

fb/mashro3pdf

لاحظتُ شيئاً من خروجها وعودتها مصحوبةً بابنها، في سيارته القديمة وكأنها عنده من مائة سنة.

في اليوم الرابع عرفت أنها عادت ولازمت البيت. سلّمت عليها، فإذا بعينيها دامعتان، قبلتها وانحنيت أقبل يدها، فخطفتها قائلةً إن الناس بطّلت (تخلت عن) بوس الأيدي. وهذا على رأيها أحسن شيء عملوه. ثم أخبرتني بعد تردد أن "سياسة السلحفة" ليست جيدةً. وهو تعبير قديم لا أستعمله أنا، ومعناه أن وجهها وجه السلحفة ليس فأل خير. وشعرت بأن حدسي كان على صواب نحو هذه المخلوقة. وأخبرتني أنهم في المشفى لم يقولوا لها شيئاً ولا حتى ماجد، وأنها عملت تحاليل كثيرةً وصوراً أكثر، وسمعت أنهم أخذوا منها خزعة للفحص، ولا تعرف ما هي الخزعة. وبصراحة لا أعرف أنا أيضاً ولا أحب أن أعرف. وقد تضايقت من تكتمهم ومعاملتها كأنها طفلة تخاف لو أبلغوها بشيء. ثم دافعت فجأةً عن سلحفتها، وقالت إنها مريضة وليس هناك من يداويها، وسارعتُ لإبلاغها بأني لم أضع لها شيئاً، وهي تُبقي معي دوماً المفتاح الخارجي، فقد أنساني القلق على أم يوسف كل شيء آخر.

ورجعت حسيبة تضحك: مرضنا معاً أنا وهي. لا تنفعني ولا أنفعها. وسألتها كيف عرفت أن المدللة مريضة، فقالت إنها لا تتزحزح إلا مرةً أو مرتين في اليوم. ورجعت أحكي لها، لكن بضيق

fb/mashro3pdf

وانزعاج هذه المرة، عن البيات الشتوي. واتهمتني صراحةً بأني أكره ضيفتها، فزعقت بها: نحن في ماذا وأنت في ماذا؟ وسألتها: لماذا تريديني أن أحبها، وقد اعترفت قبل قليل إن "وجهها" ليس خيراً عليك، فسكتت.

لا أعرف السبب، لكن هذا ما حدث، فمن يوم أن أحضرتها، وحسيبة بدأت تهمل نفسها وهو أمر حيّرني، حتى أنها أهملت الزرع وربما تفكر في أن الشجرة في التنكة تعيش بعل (على المطر). المطر يأتي في الزرقا مثل النعمة، مثل الهدية الفجائية، وليس عادةً معتادةً. أما الحصن فلا تعرف المحل أبداً. كان يمكنها الاهتمام بالمحروسة وأن تعتني بنفسها أيضاً، فليس لديها الكثير مما تنشغل به. حسيبة تتصرف كالأطفال، عقلها كبير لكنه لم يعد يسعفها، لم تعد تستعمله.

في صغرها كانت بنتنا دلال مولعةً بالقطط، ثم كرهتها فجأةً بعد أن كبرت البنت وتكاثرت القطط ولم يعد أحد يعرف هذه القطة بنت من وهذه أمّ من، ولم تعد القطط تُعتّب على باب بيتنا. كانت تأخذ الحليب والخبز وحتى الرز واللحمة للقطة، وتنسى نفسها بلا أكل. حسيبة تفعل الشيء نفسه. مهمومة بالسلحفة وتنسى نفسها. ليست صغيرةً كي ترتكب هذه الحماقة، وليس لي قلب كي أوبخها. وها هي مرضت مرةً ثانية ويعلم الرب أي مرض، وقد كثرت الأمراض الصعبة بين الناس، بما فيها المرض الذي لا يحب أحد وأنا

fb/mashro3pdf

منهم أن يذكر اسمه، ولا ينجو منها حتى الشباب وحتى المرتاحون في النعمة والدلال فكيف بحسيبة، التي تنكمش ويجف عودها مثل الزرع في أيام المحل.

أستغرب منها وتقهرني حين تصمت فجأةً، وترسل نحوي نظرات استغراب واستفسار، وكأن حالتي أنا تثير الاستغراب وليس حالتها هي. أتوه مع نفسي، وأشعر حينها باليأس وأفكر أن أبو عوني معه حق، فقد أكون أبديت اهتماماً زائداً بها أفسدها، أقصد أضر بها وجعلها تعتمد عليّ وتشعر باللامبالاة فتنسى واجبها على نفسها، ماذا قلت؟ قصدت حق نفسها عليها. وفي أيام أصفن مع نفسي في المطبخ وأنا أطبخ، أسرح مع البخار الصاعد من الطنجرة وأنظر إلى السقف، وتأتيني شياطين تجعلني أفكر في أني مخطئة، وعليّ الحذر من الاستمرار في الخطأ، فأنا أهتم بجارتي أكثر مما يجب، وهي تنسى الدنيا وتنسى نفسها وتهتم بسلحفتها اهتمام جدة بأول حفيد لها، والنتيجة ها هي: تنشعط الطبخة.

انشعطت، لا تأكلوا منها..

fb/mashro3pdf

8

شاب آخر تقدّمَ لدلال، لم يتكلم سوى مرتين كل مرة بكلمتين، حين شرّفنا بصحبة أمه في زيارة استطلاع. عمل ما عليه: لمّع حذاءه، كوى بنطلونه، ملّس شعره وفرّش أسنانه ورشّ كالونيا، ووضع راحة يده اليمنى على يده اليسرى في جلسته المؤدبة، وترك لأمه النبيهة المقدامة أن تتحدث عنه وعنها، وتشوشح بيدها التي تضع فيها إسوارة ذهب عثملية. دلال التي لبست أحسن ما عندها ودفعت خمسة دنانير للكوافيرة، تجلس إلى جانبي تجيب على أسئلة أم الشاب: مواليد أي سنة، أين تعلمت، لماذا لم تشتغلي، هل أنت التي صنعت المعمول، الماما؟ ألا تصنعين أنت حلوى؟ فستانك حلو: تفصيل أم جاهز. أنت التي وضعت الكشكش على القبة؟ وتسألني الضيفة المعززة التي تعزز نفسها فوق ترحيبنا بها: داركم مُلك أم إيجار، أين محل أبو عوني هل يشتغل جملة أم مُفرّق، ماذا يشتغل عوني وسامي؟ الخريجون كثر والشغل قليل. زوجها لا يعمل، متقاعد وعنده شقتان مؤجرتان. الشاب خريج يعمل في الاتصالات، وأبوه بنى له: ركب الدار في الزرقا الجديدة، ليس عنده سيارة، ليس مستعجلاً على سيارة، آه معه رخصة. مكان العمل ليس بعيداً. من عرّفكم علينا؟

fb/mashro3pdf

ناس شرواكم (مثلكم، المقصود طيبون مثلكم) وحكوا لنا أن لا نحكي من هم. شكراً على العصير. شكرا على الحلو. لا أشرب قهوة، يلعن القهوة ويومها. لا ليس عندي ضغط نُشكر الله، أنت هل عندك ضغط؟ إذا كان عندك ليس جيداً لك أن تشربي قهوة. إن شاء الله يصير خير. فرصة سعيدة. الشاب ردد وراء أمه فرصة سعيدة وهو يكاد يختنق، ولا يدري إن كانت الفرصة سعيدة أم أنه كلام في كلام.

يتوافدون وينصرفون، وهناك من الجارات من تلاحظ القادمين، فيسألنني في اليوم التالي عنهم فأقول لهم إنهم مجرد ضيوف.. قرابة بعيدة لأبو عوني أو لي. بعضهن يُصدّقن وبعضهن يسكتن "على غش". حسيبة شاطرة لا تسأل ولا تتطفل، مع أنها تلاحظ كل شيء. تتركني لأتكلم أنا أو أتكتم. منهم من الضيوف الأكارم من نستقبله على مضض فاستقباله ليس مُبهجاً. لا يشربون قهوةً ولا شاياً، والعصير يريدون نوعاً بعينه، تفاح مثلاً، جوافة لا توت لا منجا لا. لا جلستهم تسرّ ولا محضرهم، مع ذلك أم العريس لا يعجبها العجب ومستعجلة على المغادرة، مع السلامة.

الصحيح أن أمهات الشباب يطفن من بيت إلى بيت، يتفرجن على بنات الناس، يبحثن عن أفضل بضاعة بأقل تكلفة، يتسلين وينصرفن. بعضهن يتصلن بالتلفون قبل تشريفهن: كم عمر بنتكم:

fb/mashro3pdf

25؟ لا، نريدها 23، ابننا عمره 28 سنة فقط. هلى بنتكم طويلة؟ وسط؟ لا ابننا يريدها طويلةً.. أنت تعرفين شباب اليوم. أجل أعرفهم. وأعرف الأمهات الفارغات اللواتي تزوجن على البيعة، وبينهن وبين الجمال والفهم وخفة الدم بلاد وبحور، ويُرِدن بنت نقا (منتقاة) كاملة الأوصاف لأولادهن النجباء. دلال تسخر قائلةً: كاملة الإضافات أيضاً، فأضحك وأضربها على كتفها، وأتمنى أن أراها سعيدةً في بيتها مع شاب ابن ناس وليس ابن فشخرجية، أو ناس طالعين على الدنيا جديد (مؤخراً)..

كثيرون يأتون لا نعرفهم ولا نعرف أي طريق قادهم إلينا، كأنهم يتفضلون علينا بقدومهم، والأنكى أنه لا فضول لديهم للتعرف، سوى على وضعنا المادي وعلى شكل البنت. غير ذلك لا يهم. هكذا تقدّم الناس وانعدم الذوق لديهم.. ما شاء الله عليهم. أنا لا أعرف إذا كان هذا زواجاً تقليدياً أم لا..صديق للوالد جاء بابنه الذي أصبح زوجي وأبو الأولاد. قال الوالد الرأي رأيك ولا أزوج بنتي إلاّ بخاطرها، ولم يعط صديقه كلمةً نهائيةً إلاّ بعد موافقتي، ولم أوافق عليه إلاّ بعد أن جلست معه مرتين، مرةً في الحصن في دارنا ومرةً في الفحيص. كانت حالته بسيطةً ويشتغل مع أبوه في تجارة مواد البناء. لكن طموحه أعجبني وشبكت السنارة. ولم يقبض أبي قرشاً من مهري.

fb/mashro3pdf

مرةً أقول إني لن أستقبل بعد اليوم أحداً منهم، فتصمت دلال وتشيح بوجهها عني فأعرف أنها زعلانة وأستنطقها فتقول: لا مشكلة دعينا نستقبلهم. ومرة تقول إنها لم تعد تطيق هذه الزيارات، ولن تستقبل أحداً، فأطيّب خاطرها وأشرح لها أننا نقرر أيضاً من نريده ومن لا يروقنا، وليسوا هم فقط من يقررون، فماذا نخسر من استقبالهم؟

الصحيح أننا حين نعرض البنت للفرجة نخسر. لم تكن هذه الطريقة سائدةً من قبل، كانت الناس تستحي. لم أزوج عوني بهذه الطريقة.. أطوف البيوت لأتفرج على بنات الناس وأقول هذه حلوة، وهيّا نزور أناساً آخرين فقد نجد من هي أحلى، وإن لم نجد نتسلى؟ لا. عيب، والله عيب.

من تقدّم لها من قبل رفضته. دلال تتسلى بعض المرات مثلها مثل شباب اليوم، ومن دخل في مزاجها لم يعد بعد الفرصة السعيدة. وأنت يا أم عوني عليك أن تستقبلي، أن تفردي وجهك وتجاملي أناساً لا تعرفينهم، سواء أعجبوك أم لا. وأبو عوني لا يتدخل ولا يحب حتى سماع أخبار هذه الزيارات.

نبوءة السلحفة بخصوص دلال لم تتحقق. حتى السلاحف صارت تتنبأ وتتدخل في مستقبل البنات، سامحك الله يا حسيبة.

fb/mashro3pdf

9

جاءتني دلال إلى المطبخ متهللةً تُملس على شعرها: سيزورنا ناس، وأخفضت رأسها. خفق قلبي، وكان يجب مع ذلك أن أوبخها: يزورونا دون أن يتصلوا بأهلك؟ أليس لك أهل.. هل جُننت؟

سكتت وسارعت إلى وضع راحة يدها على فمها من الخجل أو الندم. ثم قالت كلاماً من عندها من تأليفها: سوف يتصلون بك. انسحبت وأسرعَت إلى الكمبيوتر تدُق عليه. لحقت بها، فتمنت عليّ أن أتركها وحدها. أنا أعرف قليلاً في الكمبيوتر، أفتحه وأغلقه إذا لم تكن دلال منكبةً عليه هي أو سامي، وأرى مواقع تزغلل عيناي منه وأتركه مفتوحاً. نعم أعرف استخدامه، لِمَ لا، ما دمت قد لحقت بعصر الكمبيوتر، اللي بروح عالسوق بتسوّق. لكني لا أكتب عليه، مع أني تعلمت زمان على الآلة الطابعة السوداء، التي تسمع صوت الدق عليها من الشارع المجاور. أبو عوني صار عنده في المحل كمبيوتر، وقد أقنعه سامي بشرائه ثم علّمه عليه. يستخدمه للشغل وليس للتسالي. لم تخبرني دلال بشيء حتى بعد مضي أربع ساعات، هَرَبت فيها مني وتركت الكمبيوتر لسامي ثم عادت إليه. قالت إنهم

fb/mashro3pdf

لن يأتوا إلا بعد اتصال هاتفي. لم يتصلوا فساورني القلق، وأطبق على دلال حرجٌ شديد كاد يخنقها، و لم يكن مناسباً معه أن أعنفها.

في اليوم التالي اتصلت سيدة وحكت معي بطريقة رسمية، طلبت الزيارة وأبدت ضيقها من صعوبة العنوان، فهم ليسوا من سكان الزرقا، بل من عمّان من أم السماق الجنوبي كما قالت، وأنا أعرف الهاشمي الشمالي والجنوبي وماركا الشمالية والجنوبية، أما السماق وأم السماق فهذه أول سمعة. حكوا اسم العائلة من دار خوري وعن ابنهم في التاسعة والعشرين من عمره، وتواعدنا على يوم غد وكان يوم خميس. حين أغلقتُ السماعة، هتفت دلال متهللةً: لم أقل لك إنهم سيتصلون. قلت لها لقد اتصل دار خوري ويأتون غداً. فبُهِتت: ليسوا هم. ليسوا هم. وهربت المسكينة مني لتخفي دموعها عني. لم أعرف هل يتعين أن أكون مسرورةً أم زعلانةً أم أتلخبط؟ وقررتُ بعد تفكير وتمحيص، وبعد وضع مصلحة دلال في الميزان، قررتُ أن أكون مسرورةً.. فزيارات الناس أفضل من انقطاعها. وأن تزورنا عائلتان: العائلة التي تقصدها دلال وعائلة خوري، أفضل من مجيء عائلة واحدة. يصبح هناك خيارات، على رأي صاحب برنامج "من يربح المليون".

لم يكن لدي ما أقوله لدلال وتركت الأمر للأقدار. طرقتُ باب حسيبة ولم أجدها. لقد أصبحت غامضةً، قلت لنفسي ولم أتمالك

fb/mashro3pdf

نفسي من الضحك ثم الشفقة عليها. عُدت على أعقابي أبحث عما أتسلى به، فلم أجد أفضل من تنارل طعام الغداء، وكان أصبح جاهزاً وقد نسيته ثم تذكرته. ناديت على سامي ودلال ليتغديا معي وقد تفاجأتُ بسرعة استجابتها، وهي التي تتأخر إذا كانت ليست على بعضها أو فكرها مشغول. جلست مُطرِقةً. وسامي لا يدري بما يدور حوله، ثم ضحكت متهللةً حتى شهقت، وقامت وقبّلتني مع مجاملات من نوع "يا أحسن أم عوني، يا أحسن أم في الدنيا". لم أفهم. سألتها عما يجري وعيني على المقلوبة مخافة أن تبرد. فأجابت على الفور ولكن همساً في أذني مخافة تعليقات سامي: هم الذين اتصلوا. هم دار خوري. لم أكن أعرف اسم العائلة..

سامي نهض وقد أدرك ضمنياً ما يدور، وهو من النوع الذي يتناول طعامه على دُفعات.. ولكن كل دُفعة وجبة.

انبسطتُ لها. واندفعتُ رغم ذلك لتوبيخها على الخفيف: تعرفين ناساً وتجهلين اسم عائلتهم؟ قالت إنها تعرفت على الشاب قبل سنتين في مشوار إلى عمّان. تعرفت اليه في مول، مع إحدى زميلاتها وهو قريب لهذه الزميلة المخطوبة لشاب آخر، وأنهما بعدئذ لم يتقابلا (لا أصدّقها، لكن ما دامت النوايا سليمة فالتصديق والتكذيب الآن سِيّان..) لم يتقابلا إلا على.. على ماذا؟ على شات، على الشات في الكمبيوتر، وقد اتفقا على الزواج منذ أربعة أشهر.

fb/mashro3pdf

- اتفقتِ من وراء ظهر أهلك؟

- لا يا أمي، لا يتم شيء إلاّ بموافقتكم.

قلت لها دعينا نرى الشاب ونتعرف على أهله، ونقرر معاً بعدئذ.

هكذا لم أعد أنتظر عائلتين، بل عائلةً واحدةً.

خسرنا عائلةً.. والمقلوبة بردت.

إشترِ ماكرويف يا أبو عوني.

fb/mashro3pdf

10

دلال خُطبت بعدها بثلاثة أيام، للشاب ما غيره ابن دار الخوري. تساهيل الرب. شاب آدمي ونشيط، محاسب في شركة سياحة ويُحاسب في الدار لشركات أخرى، لديه كرش صغير ويلهث قليلاً حين يتكلم مع أنه لا يدخن، ولا أدري لماذا لهاثه. قالت أمه إن ابنها اختار وهي ترضى بما ارتضاه، وأبوه في تربته يرضى. نسيبتي الجديدة موظفة متقاعدة أكبر مني بسنتين لكنها متشببة لديها سيارة هوندا خمرية، تتاجر بالأسهم وأنا لا أعرف غير الأسهم النارية التي يطلقونها في الأعراس. ترى نسيبتي أن جيل اليوم بيخوّف ولا خوف عليه. أنا لست من هذا الرأي، ولا أريد من أولها أن أختلف مع حماة بنتي السيدة منيرة. المهم أنه قد انزاح عني هم ثقيل، وانفتحت لي أبواب السما والدنيا. ولم أنسَ الوفاء بالنذر: خروف أبو ليّه توزعه أختي فهدة بمعرفتها، ويدفع أبو عوني ثمنه راضياً. أما جارات الحي فلهن حلوى من صنع يدي.

هكذا صحّت نبوءة السلحفة هذه المرة. استعجلنا عليها وكذّبناها أول مرة. قدمتُ لها قليلاً من الحشائش وخضاراً شبه تالفة، فيسّرت لنا طريق البنت، بينما دلال تُعيد الفضل للكمبيوتر. دلال هي التي معها الحق فأنا صراحةً أتسلى، ثم أتوه وأخلط بين التسلية والجد، مثلي مثل

fb/mashro3pdf

صاحبتي الجارة صاحبة السلحفة، الغائبة عن السمع والنظر كأنها اختُطِفت مني. لقد انشغلتُ بتنظيف البيت وترتيبات الخطوبة واستقبال وتوديع الأنسباء الجدد وسهيت عن حسيبة. لها الحلاوة وعليها المباركة لدلال ولي.

في هذه المناسبة وتغيب؟ فتحتُ البوابة الخارجية لبيتها، وكان هواء حماسيني ينعف غباراً ويأخذ الزريعات شمالاً ويميناً، وقريباً من الباب الداخلي باب الدار، رأيت السلحفة تقف (متوقفة) مثل طفل ينتظر أن تفتح له أمه الباب. عُدت إلى البيت خطفاً وحملت لها بندورةً وخيارةً وكوسايةً طريةً وماءً في علبة لبن بلاستيكية، وضعتها على جريدة مفرودة داخل الكرتونة التي تزحزحت عن مكانها. وخرجت دون أن تراني. لقد خرجت مثل دجاجة من القن وآمل أن تعود إليه كما يعود الدجاج مع غروب الشمس.. جيد أنها لم تريني. أخاف من نظراتها المفعمة بالعتاب والتحذير. آ.. لقد فتحت عليها من قبل حين كانت حسيبة في المشفى الحكومي، لكني كلما مر الوقت عليها أخاف منها أكثر. كان يجب أن أشكر السلحفة على نبوءتها، وأطعمها حلوان الخطوبة، لكني وحياة سيدنا الرب خفت منها. مع أنني أحببتها وأشفقت عليها.

حدثتني حسيبة من قبل عن اختفاء السلحفة، الآن هي التي اختفت ولن أستطيع سؤال السلحفة عنها. فاضطررت أن أسأل الجارة أم سمير

fb/mashro3pdf

التي لا تحب أم يوسف. أم سمير ليس لديها سمير فهي بلا خلفة، ومن يوم أن عرفناها قبل أكثر من عشر سنين وهي بهذا الاسم، وهناك من تقول إنه كان لديها سمير والرب أعطى والرب أخذ. نحن النسوان نَصِفها بالراديو، ويصفها سامي بوكالة رويتر، تراها مرةً ببنطلون جينز ومرةً بعباءة سوداء، مرةً بحجاب ومرةً بإيشارب، تستدين من محل الخضار ومن الصيدلية والدكان، ومرةً تدفع كل ديونها دفعةً واحدةً وتبقي رصيداً قليلاً لها عند أصحاب المحلات دينارين أو ثلاثة دنانير، فلا يستطيع أحد من هؤلاء بعدئذ أن يرد لها طلباً.

تراقب القادمين والمغادرين بعيون صقر من شبابيك بيتها على الطابق الثاني وهو بالإيجار. تعرف أحوال العائلات أكثر مما يعرفها بعض أهل هذه البيوت. أم سمير قوية وليس سراً أنها ضربت زوجها حين عاد في الفجر سكران طينة مرةً، ومرةً بعدما شكت أنه يلعب بذيله وتزوج عليها عُرفي حتى تعهد بتطليق زوجته العرفية وعدم التأخر ليلاً. وحين ينقطع عن الشرب وتستقيم أموره يأخذ هو بضربها في.. المناسبات: إذا تكلمت بسوء عن أحد من أهله، إذا عايرته بظهره المحني، إذا دخنت من سجائره وانقطع بلا سجائر في آخر الليل، إذا أجّلت طبخ المحشي، إذا لم تعجبها قناة الجزيرة وفضلت عليها مسلسلاً تركياً، أو برنامج السيدة السمراء الممتلئة التي بنات الغور أحلى منها مائة مرة: أوبرا، وإن كانت شيطانة التلفزيون الأميركية تفهم. ثم يأتي لها بكنافة صلحة، بل قد يخرج

fb/mashro3pdf

معها في اليوم التالي إلى السيفوي لتشتري ما يعنّ لها من فلوس زوجها سمسار الأراضي، وهكذا هي حياتهما: يحبان بعضهما ويتبادلان تدخين الأرجيلة، وحين لا يجد أحدهما ما يفعله بتصيد أخطاء الآخر ويضربه بما تقع عليه يده.

أم سمير خرجت بقميص نوم مستور، رحبت بي بحرارة ودعتني أن أدخل فشكرتها واعتذرت، وأبلغتني على الباب أن حسيبة غادرت بصحبة ابنها يوم الأربعاء قبل أربعة أيام و لم ترجع. وسألتها عن حالتها، كيف رأتها. فقالت: هي هي.. على حطة إيدك. كما هي على طول: زعلانة. زعلانة في العافية وفي المرض، في الرواح والإياب. في شعبان وفي رمضان وفي العيد، وحتى في انبساطها تبدو زعلانة. من أيام المرحوم أبو يوسف وهي زعلانة. لو تحررت فلسطين من الماء إلى الماء لوجَدَت سبباً لتزعل.

هنأتني بخطوبة دلال وسألت عن العريس، ومتى يوم المباركة فقلت لها قريباً جداً، وقد تحسبتُ لزيارتها فهي سليطة اللسان، قادرة على التسبب بمشاكل أو إثارة البهجة بالسهولة نفسها، وكما يشاء لها مزاجها.

وارتحتُ بعض الشيء. لم يحدث لحسيبة مكروه ، بينما أنا إلى جوارها غافلةً عنها.

fb/mashro3pdf

11

لم ترجع حسيبة، أبلغتُ أبو عوني بقلقي، فاستغرب أن أعيش في قلق هذه الأيام، وكان يظنني سعيدةً، وكنتُ سعيدةً حقاً لدلال وقلقة في الوقت نفسه على جارتي صاحبتي. تساءل زوجي منفعلاً عن وجه الغرابة، في أن تكون جارتنا الأرملة بضيافة أولادها في عمّان، وكاد يتهمني بأنّ مَساً أصاب عقلي، وأني أحاول تقليد الأم تيريزا، لولا أن تلك الراهبة لم يكن لديها زوج وبيت وأولاد. دافعت عن نفسي بالقول إني لم أعهدها تفارق بيتها، وبدا دفاعي مثيراً لسخرية مكتومة لديه. مع ذلك تمنيت عليه بقدر من الإلحاح الاتصال بابنها ماجد ليستفسر منه عنها، فقال إنه لا يعرفه إلا بالوجه وليس بينهما كلام (متبادل) فكيف يحدثه. وسألته: ما الأنسب أن أكلمه أنا أم أنت؟ فأجاب أنه ما دام الأمر يتعلق بأمه، فالأليَق أن أتحدث أنا لا هو. واتفقنا أن يطلبه هو، ثم أسأله أنا عن أمه.

هكذا كان، اتصل أبو عوني على مضض، غير أن ماجد وحّب أبو عوني ورحّب به على التلفون، فلم يجد زوجي مناصاً من أن يكمل المحادثة ويسأله عن الختيارة، فأنبأه ابنها بأن صحتها "على قدها" وأنها عندهم، وأن شقيقه طه الأكبر منه قد "أعطانا عمره". لم يكن أبو عوني

fb/mashro3pdf

سمع من قبل باسم طه، وسارع للترحم عليه وقال لماجد: واجبكم (واجب تقديم العزاء) علينا. لكن هذا اعتبر السؤال والاتصال كافيين، وقال إن المرحوم توفي قبل ثلاثة أيام في بيته بعد أن تناول مشاوي ونام، وأنه كان يشكو من القلب ويفرط في التدخين.

فهمت ما حدث من متابعتي للمكالمة، دون حاجة لاستيضاح أبو عوني. لمعت لحظتها صورة شقيقي نجيب الذي مات في الغربة، رأيته يهش ويبش لي، يقترب مني ويغوص في الفراغ، فنفرت دمعة مني وابتلعت غصتي. ابنها طه كأنه مات في الغربة، فقد تباعد عن العائلة وانحنى على همومه. كانت تحبه وتحنو عليه. دقّينا مرةً ثانيةً على دار ماجد، وطلب أبو عوني الحجة بعد الاعتذار من تكرار المكالمة، كي تكلمها أم عوني إن لم يكن ذلك يثقل عليها. انتظرتها على الخط، حكيت كلمتين تعزية معها ولم أسمع سوى أصواتٍ مختلطةٍ حولها، ووصلني صوتها متحشرجاً مخنوقاً بالدعاء لي ولكل من في الدار بطول العمر، فإذا بي أفقد قدرتي على الكلام معها وأناول أبو عوني السماعة.

أبو عوني تشاءم ونهض مبتعداً عني، فأنا السبب في انحراف مزاجه.

قبل غروب اليوم التالي عادت. سمعتُ صوت سيارة ماجد تشحط وتُصدِر صريراً، فإذا بي أهِب لاستقبالها، وكنتُ أتجنب فعل ذلك حين تكون مصحوبةً بابنها. قبّلتُ وجنتيها، وانتابتني رغبة في أن أقبّل يدها ولم أفعل، وأبلغتها بأني سأعود إليها. كان أبو عوني قد عاد ولاحظ تأثري،

fb/mashro3pdf

فانحرف مزاجه مجدداً كيوم أمس، تأفف وتنهد بصوت مسموع ولهرتُ على دلال أن تفِز عن الكمبيوتر وتضع له طعامه، واستغربت هي عصبيتي وقد جحظتني بنظرات غريبة عنها، مدعومة بأول مشاعر استقلالها عني وعن البيت وقامت متثاقلةً. تبعتها حاملةً بعض الإضافات: زيتون ومخلل باذنجان. وجلستُ إلى جواره أتبادل معه الصمت.

لم أعرف عما أتحدث، غفلت أن أقترح على أبو عوني رؤية ابن الجارة ماجد والسلام عليه، وتعزيته في شقيقه وجهاً لوجه ما دام أنه جاء بقدميه. فأبو عوني لا يرغب ما إن يعود سوى في تناول طعامه وأخذ قسط من الراحة، وكان يتعين أن أبادر في الحديث كما يحدث في مثل هذه الظروف، فأبلغته بما أنبأتني به دلال عن عمل دبّره لها خطيبها سمعان في عمّان، فاستغرب الخبر وتوقف عن تناول البامية المطبوخة: ليتزوجوا أولاً، وحين تنتقل إلى بيتها في عمّان تشتغل. كان هذا رأيي. لكن جيل اليوم يفكر بطريقة مختلفة: إنهم عمليون يفكرون في اليوم وغداً وبفرصة لرؤية بعضهم بعضاً، ولا يعبأون بأي شيء آخر. دعوته أن يكمل طعامه ولم يكن قد تبقى في الصحن إلا لقمة أو اثنتان. وقد أشاح بذراعه إشاحة خفيفة علامة الاكتفاء، وكما سمعت حسيبة تقول ذات مرة أبقى على لُقمة المستحية (من تأتي على الطعام، وتخجل من تناول اللقمة الأخيرة منه..). المهم أني نجحت بعض الشيء بتعديل مزاجه. لا نفع بي إن لم أفلح بذلك، بعد ثلاثين عاماً من العشرة معه.

fb/mashro3pdf

دون أن يطلب مني وبحكم خبرتي في مداواته، حضّرت له كأس عرق مع خس ومتبّل باذنجان، وسألته إن كان يرغب في أرجيلة فأجاب: بعدين. كأس العرق له أفضل تغطية لانسحابي، ومروري على جارتنا وتوصية دلال على أبيها فلن أتأخر. وكنت سمعت صوت سيارة ماجد تترح عائدةً بصاحبها من حيث أتى.

وجدتها ترتب بعض الأغراض وقد شحب وجهها. قالت إنها زارت طه ليس في سحاب بل في مقبرة وعرة بعيدة ملأى بالأشواك. حتى في المقبرة نومته غير مريحة. وسألتني عن أحوالنا، ثم فجأة سألت عن دلال، وقد ارتبكت ولم أعرف بما أجيب، فانشقت ابتسامتها بصعوبة تحت عينيها المخضلتين بالدمع. قلت لها صار النصيب، فمدت يديها ورفعت رأسها تلهج بالشكر لله. وسألتني إن كانت البنت مبسوطةً، فأجبتها على الفور: لماذا لا تكون مبسوطةً؟ فقالت هذه هي الدنيا.. وتلعثمت في الكلام وسكتت مثل طفلة لا تثق بقدرتها على التعبير. عاودت الابتسام، فاستشعرتُ ما تفكر فيه، بأن الأفراح والأتراح تتجاور وتختلط، وليس لأحد أن يستغرب أو يعترض.

وأسرّت لي أنها تقاتلت مع ماجد، بعدما أصر أن تنتقل عنده في عمّان، وأخبرته أن مفارقتها لبيتها بيت أبو يوسف يعني انتهاء كل شيء، وأن ماجد الحزين على أخيه حزين على انفراط العائلة، ويخشى إذا بقيت

fb/mashro3pdf

أمه تعيش بعيدةً ومنفردةً أن يتكلم الناس بحقه. لم أعقّب على ما قالته، فماجد غلطان وهي غلطانة .

ويمكن أنا أيضاً غلطانة.

كدت أضحك من توهني، لولا أن المقام لا يسمح.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

12

في اليوم التالي جمعت لها سبع جارات لواجب التعزية، أعددت قهوةً سادةً عندي في البيت أحضرتها مع فناجينها وشاف ماء (إبريق زجاجي)، وثلاثة كراسي بلاستيك من برندة بيتنا، وكانت المرة الأولى التي يتجمع فيها هذا العدد من النساء عندها، وبعضهن دخلن بيتها أول مرة، ما أتاح لهن إشباع فضولهن لرؤية البيت من الداخل. رأى بعضهن أمارات البساطة فيه، وواحدة أو اثنتان لاحظتا بإعجاب مدى نظافته وترتيبه. أم سمير جاءت بعباءة سوداء وإيشارب أسود شفاف لكن مع بنطلون جينز، وليس بدون مكياج وإن جعلته خفيفاً على شفتيها ووجنتيها، ويبرُق حول عينيها. بصوتها الذي تشوبه بحة من التدخين ومما لا يعلمه إلا الله، سألت عن أولاد المرحوم وأرملته وما إذا كان ترك لهم راتباً تقاعدياً. وواحدة هي أم خليل قليلة الكلام اقترحت أن تأتي خادمة تساعد أم يوسف، وأثنيت على الاقتراح: تأتي مرة في الأسبوع تغسل وتنظف البيت وتشطف لها المدخل. لم تعلق أم يوسف، وقالت بعدئذ إنها لم تتعود على خادمات، فتدخلتُ من جانبي وساندتني أم سمير: ليست سريلانكية ولا أندونيسية بل بنت بلد. بعضهن أحنين رؤوسهن وتبسمن. ولما لم يجد اقتراحها

fb/mashro3pdf

قبولاً فورياً من أم يوسف، فقد أبدت أم خليل استعدادها لتقديم كل عونة في أي وقت، فالحجة بركتنا، وقد رمقتها أم يوسف بمحبة وربما عاتبت نفسها لأنها لم تجاملها من قبل.

لم أبكِ كعادتي في العزاءات. لا أعرف لماذا. لأن دلال خُطبت وبالي مشغول في إتمام فرحتها، أم لأن حسيبة لم تفقد رغم الإعياء قوتها، ولخوفي أن تتأثر بالبكاء وتضعف، وهي بحاجة لمن يسندها لا إلى ما يضعفها، أم لخجلي أمام بقية الجارات. لقد لاحظتُ أن حسيبة تتفرس في وجوههن كأنما تتعرف إليهن أول مرة، وقد تبسمت مرةً في وجه أم خليل المعروفة بإتقانها كبس الجبنة وصنع كل أنواع المخللات حتى الكوسا تصنع منه مخلل، ومرةً لأم سمير ما غيرها، ومرةً لفلحة، وهي تعرف المعزيات بالتحية والسلام وقليل الكلام، ولم تنشىء علاقة جيرة وخذ وهات مع إحداهن. منذ ترملت زادت حساسيتها، ونجحت في إثارة انطباع بأن لا حاجة بها لأحد حتى لأولادها، مع أن هيئتها وسحنتها ظلت تدل على أنها ليست في أحسن حال. الآن بعد أن ثكلت بطه، أدعو الله أن يلطف بها.

واحدة من الجارات هي أم فارس أربعينية زوجة معلم مدرسة كثيرة الوسوسة، شكت فجأةً من زعرنات في الحارة تتم في الليل. شباب يتسكعون ويتصارخون، وشجار بدأ قبل يومين بملاسنة بين

fb/mashro3pdf

شايين وانتهى بضرب أمواس، وأن عائلتي الشايين تتربصان ببعض. أم يوسف نقزت، وأنا لم استغرب وقلت إننا لم نسمع أصواتاً. أم فارس قالت إن ما حدث وقع في طرف الحارة، وشهد ابنها ما حدث، وقد تدخلت الشرطة بعد أن وصلتهم إخبارية سريعة، فسألتها أم سمير إذا كان ابنها هو الذي أخبر الشرطة، فارتبكت المتحدثة وقالت بعد تمحيص إنه لم يكن الوحيد الذي شهد المشاجرة، وأن في بيوت الناس بنات يجب الحفاظ عليهن. أم سمير تدخلت وقالت إن هناك بنات أقوى من الشباب، وبعضهن يشجعن الشباب ويمسجن لهم. أم يوسف بدت حائرةً في ما تسمع، وقد تدخلت أم خليل التي تزوجت في كولومبيا قبل عشرين سنة من ابن عم لها كان مقيماً هناك، ولم تلبث أن رجعت مع زوجها الذي يشتغل في تجارة السيارات كي تكبس الجبنة البيضا، وشرحت إنهن يكتبن رسائل على الموبايلات. أم سمير تحدثت أكثر من غيرها وقد دخنت سيجارتين وأخذت منها سيجارة، وقالت إننا زمان كنا نمشي ولا أحد يتحرش بنا، وأن أحداً لا يجرؤ على التحرش بها، فهي كما ذكرت شريكة في محل كوافير، تذهب إليه مشياً أحياناً لربع ساعة، أو يوصلها أبو سمير بسيارته ثم ترجع مع شريكتها. تنهدت أنا وشكرت الرب مع نفسي لأن دلال خُطبت ورغبتُ في أن تشتغل في عمّان غداً إن أمكن. تدخلت بعدئذ الجارة فلحة وسألت أم يوسف عن سلحفتها. برقت عينا أم يوسف،

fb/mashro3pdf

تنهدت وتململت في جلستها، وسألت: مالها؟ فأجابتها فلحة الجارة الشابة التي سكنت الحي قبل أقل من سنة ومتزوجة من جندي: هل تتعبك؟ وبدا أن أم يوسف قد أتعبها السؤال فقط، فنطقت ساهمةً: إنها في بيات شتوي. وتلفتت فلحة إلى جاراتها مستغربةً ما سمعته، وترددت في التعقيب خشية الوقوع في الخطأ، حتى تدخلت أم خليل بالقول: تنام في الشتاء. وسألت أم سمير: الشتاء بطوله؟ وقالت إنها تسأل جادةً. وهنا قالت أم يوسف: ما الذي يدريني، ومنذ متى أنا أربي سلاحف؟ ردت عن نفسها تهمة تربية السلحفة، مع أنها تُربيها.

شعرت بأنها تضايقت فقمت أصُب فنجان قهوة أخير، فأخذت مني فلحة الإبريق وصبّت للجميع، وأشعلت أم سمير سيجارةً ثالثةً قالت إنها الأخيرة وسألت أم يوسف إن كانت تتضايق من السجائر. فنفت ذلك وقالت إنها لا تتضايق من أي شيء، وفاجأت الجارات حين سألتهن إن كن باركن لي بخطوبة دلال. تبسمت أم سمير، وحدجتني بنظرة ماكرة، لكنها ودية، والتقطت الخيط رغم سحب الدخان الذي تنفثه، قائلةً إني لم أدعها لحفلة الخطوبة والله يعلم إن كنت سأخصص يوماً للمباركة أم لا، فأوضحت لهن أن الحفل كان على الضيق (ضيق، عائلي)، ويسعدني استقبالهن في أي وقت، لكني خجلانة من أم يوسف التي سارعت للتدخل: ممَّ تخجلين وما الذي يخجلك من غير شر؟ وأنقذتني الجارة أم فارس بقولها إني أشعر مع

fb/mashro3pdf

مصاب أم يوسف. فهزتني من كتفي بأنه حرام أن لا أفرح بالبنت، وأن البنت لا ذنب لها في حرمانها من الاحتفال بها. وهنا هندست أم سمير الأمر، وقالت إنهن سيقمن بزيارة إلى دار أبو عوني والسلام، مجرد زيارة تبريك ولن يُقِمن عرساً ولا طنّة ورنّة. ثم نهضن وقبلن الحاجة التي بدت غريبةً بينهن وهي في بيتها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

13

كان من الجيد أن سمعان خطيب دلال وجد لها عملاً في صحيفة بعمّان، فأمام معارضتنا لالتحاقها إلى عمل، نظراً لصعوبة المواصلات واضطرارها للعودة مع غروب الشمس، اضطر أن يعجل في موعد إتمام مراسيم زواجه. الأخبار الطيبة تأتي دُفعةً واحدةً وقد رفعت معنوياتي وأشعرتني أن شبابي يعود لي. أبو عوني أبلغني ذات مساء أن هناك من عرض شراء المحل، ولما سألته عنه قال إنه صاحب الطفولة إياه الذي فتح محل مواد بناء قريباً من محلي للمضاربة علي، وهو يريد أن يقلب أحد المحلين بعد شراء محلي إلى معرض موبايلات، ووافقت؟ ليس بعد، فأنا أتفاوض معه على السعر وهو مستقتل (متلهف) على الشراء. وبعدين ماذا تنوي؟ من معه رأسمال لا خوف عليه.

أنا لا أخاف على أبو عوني برأسمال أو بدونه، فهو مفتّح وحسّيب نمرة واحد، يعرف أين يضع قدميه، ويحفظ دائماً خط الرجعة، ولا يضع بيضه كله في سلة واحدة.

لم يكن لدي ما أعترض عليه. سوى أني شعرت بحياتي على وشك أن تتغير. لم أرغب في أن أخطط معه لمستقبلنا. في هذا السن لا يستهويني شيء سوى سلام نفسي وراحة البال والتمتع بما بقي من

fb/mashro3pdf

عافية. تركت له التخطيط وله مني كل تعاون. فصّل يا أبو عوني وإحنا بنلبس. وله أن يختار الوقت المناسب لإبلاغي بما يعتزمه. كل ما أفكر به الآن أن تتسهل دلال. يكون لها بيت ووظيفة، فكرامة الست في وظيفتها ومملكتها في عقلها الموزون. أما سامي فلا أقلق عليه فهو مجتهد في سنته الأخيرة في جامعة الزرقا الأهلية يدرس إدارة أعمال، ويساعد أباه في أيام العطل وأوقات الفراغ. بينما حسيبة بجواري، كل شيء في أوضاعها يقلقني عليها.

زرتها بعد آخر يوم التقت فيه النساء عندها، وقالت لي إن السلحفة في بيات شتوي عن جد وحق قبل أن يبدأ الشتا بجد. أبلغتها بأني وضعت لها ماءً وبعض الخضار، فشكرتني ودعتني أن لا أشغل نفسي بها، وأخبرتني أنها وضعت لها المزيد لكن الضيفة المدللة لم تأكل ولم تشرب. وتحدثت مع نفسها أمامي بأن سلحفتها لم تخبرها بما كان ينتظر طه. كدت أقول لها إنها صدقت في نبوءتها لدلال وكتمت نفسي. الزريعة ذبلت وسقيتها. فطمأنتها أن الشتاء سوف يُحييها، ومن هذه الناحية لا يكون لك فكر. ودعوتها أن تخرج معي لنتمشى، فأسفت قائلةً إن المشي لم يعد يستهويها ولا ترغب باستطلاع أي شيء، ولا هِمة لها على المشاوير حتى القصيرة، وأنها ترغب في زيارة أبويوسف (قبره). ورمقتني بنظرة طفل خائف: طه تلاقى الآن مع أبيه. هنيئاً لهما، وإذا زرت أحدهما فكأني أزور

الاثنين.ثم قالت إن النوم يكبس عليها دائما وأنها أصبحت "خم نوم"، وتقصد أنها تنام نومها الطويل مثل نوم الدجاج في الخم، وهو قن الدجاج في العربية الفصحى. وأنا عربيتي ليست سيئةً، وقد قرأت في شبابي لنزار قباني وعرار وفدوى طوقان وجبران وإحسان عبد القدوس وجرجي زيدان، وأستغرب أن أولادي رغم نباهتهم لا يقرأون. والآن ومن عشرين سنة أقرأ جرائد وأتفرج على التلفزيون. وقد نصحتها أن تتغذى لتقيت عودها، فإذا كانت شهيها مسدودةً فلتشرب حليباً ، وتأكل حبة تفاح وموزتين في اليوم. لم تكن تسمعني أو يغريها سماع نصيحة حتى ممن تحبها.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

14

سارت الأمور بعد ذلك بأسرع مما عهدته في حياتي ذات الإيقاع الرتيب. أبو عوني باع المحل بسعر أرضاه، وقال إنه سيعرض بيتنا للبيع. ذهلت. نبيع البيت ونبحث عن بيت نشتريه في هذا الغلاء؟ فعرض علي أن يشتري بيتنا في الحصن ويرممه (يعود بناؤه لأكثر من خمسين سنة)، وتبقى أختي، فهدة معنا معززة مكرمة. و لم يكن هناك أفضل من هذا الحل. لولا أن زوجي يريد الشراء مني أنا زوجته ومن أختي التي احتفظت بعد موافقة أختي جانيت في أميركا بالورثة من أمي وتصرف منها: قليل من الصيغة خاتمان وحلق وإسورة رفيعة و 800 دينار، وكنت تنازلت عن حصتي، ولو لم أفعل لكنت بلا أصل ولا خُلق. شعرت بالحرج، وتذكرت أن هناك من تقدم بعروض شراء في الماضي لبيت الحصن و لم أكن أريد بيع بيت العائلة، أو أن تتوه أختي المتدينة التي أكملت الخمسين. فهدة تعيش وحيدةً لكن مع اهتمام ومتابعة جيران وأقارب طيبين بها، وقد أبدت استعدادها للترهب: أن تصبح راهبةً وتترك البيت. وهو ما حدثتني به بعد وفاة نجيب ثم الوالدة. وحين أخبرتها بنية أبو عوني اختلطت مشاعرها فقد فزعت وانبسطت وتاهت، وقالت أخيراً: أترهبن.

fb/mashro3pdf

فقلت لها إنك أمضيت شبابك مثل راهبة متوحدة، وشرحت لها أنها ستبقى معنا ونتسلى معاً. وأن لها حصة من ثمن البيت.

اتصلنا بأختنا جانيت في أميركا، وهي الصغيرة، تصغر فهدة بثلاث سنوات، ففاجأتنا برفضها الفكرة، قائلةً إن بيت العائلة ليس للبيع، واستغربَت كما قالت أن نفكر في البيع، وكانت تتصور أننا سوف نتمسك به أكثر منها، من باب أننا ينبغي أن نكون أحرص على التمسك بالتقاليد والعوايد أكثر منها هي التي تقيم في أميركا. وأبلغتها أن البيت لن يذهب إلى أغراب، وأن أختيها، أنا وفهدة سنقيمان فيه، فقالت إبقوا فيه ولا تبيعوه لأي أحد، قلنا لها أبو عوني ليس أي أحد، فأجابت: أبو عوني على الراس بس البيت لأبونا وذريته. وأفهمتها أن ذريته هم أولاد نجيب، وكنت اتصلت بهم، فرحبوا بالفكرة على شرط أن يباع البيت بـــ "سعر السوق"، واستعدوا لإرسال وكالة. وحين فاجأها ما قلته قالت إن أولاد نجيب صاروا أميركان أميركان، وهزئتُ بما قالته وأجبتها بأنهم على الأقل لا يتسببون بمشاكل لعماتهم.

فاجأتني وأحرجتني هي التي أسمع صوتها في الأعياد فقط، لكن ليس في جميع السنوات. وسألتني عن السعر وأجبتها، فقالت إن أسعار البيوت ارتفعت في الأردن وخاصةً البيوت القديمة. ولم أعرف من أين جاءت بالمعلومة الأخيرة. وتذكرت أن زوجها هناك يعمل في

fb/mashro3pdf

شراء وبيع العقارات، لكن معلوماته عن بلده الأردن ضعيفة. أبو عوني بدا مُحرجاً أكثر مني، مخافة أن يتهمه أحد بالطمع بمال نسوان. لكني لم أسكت وأخبرتها أنها الوحيدة الرافضة، ثم بعد التي واللتيا اتفقنا على حل وسط: أشتري أنا البيت ويسجل باسمي لا باسم أبو عوني، ولا تعرف الشاطرة أن الثمن.. أن المال من حُر مال وتعب أبو عوني، وهو حل مضحك إذ يمكنني بعد سنة أو أقل بيعه له. مع ذلك بدا زوجي متردداً. وأفهمته أن الجميع موافقون، وجانيت هي الوحيدة التي اعترضت، وأن حقها سيصلها بالدولارات الخضراء.

فهدة الطيبة، التي تشبه أمنا في الشكل والطباع أكثر مني ومن جانيت، بعدما عرفت بما جرى، حلفت بستنا مريم وسيدنا يسوع أن لا تقبض قرشاً، وأنها تنوي في الأصل أن تترهبن، فقلت لها وقد خرجت عن طوري كما يقولون: إنسي الرهبنة، لا تهدديني ولا تهددي نفسك بها. واحتضنتها باكيةً قبل أن تكمل التصليب.

بيتنا قديم على نصف دونم، واجهة أمامية حجر والباقي إسمنت، فيه ثلاث غرف نوم وصالون مع منافع عربية بالية، ويحتاج لترميم في كل شيء تقريباً، وخاصةً ببعث الحياة فيه. وكنت أتخيل فهدة تتقدم في السن وحيدةً وتصبح مثل حسيبة، وقد لا تجد مثلها سلحفاةً تؤنسها.

fb/mashro3pdf

يبدو أن أبو عوني كان يفكر بالأمر من زمان، منذ ماتت أمي، وبقاء فهدة وحيدة تطرز وجوه مخدات وشراشف طاولة وتصنع مربى توت ومشمش من خير شجرات البيت، وتُعلم في البيت بنات صغيرات الحساب والعربي ببلاش وتصلي، وما أن أبلغناها ورحبت حتى عرض آخرون، بعضهم أقارب شراء البيت "بالسعر الذي تطلبونه"، وقد قرر أبوعوني عرض بيتنا في الزرقا للبيع. ثم تمهل بانتظار الزفاف الوشيك لدلال، كما فكر في أن يبقى فيه سامي ثلاثة شهور أو أربعة إلى أن ينتهي من الفصل الجامعي الأخير، وعرض من اشترى المحل وهو أصغر من أبوعوني بـ 15 سنة شراء البيت، وجاء بسيارته البي أم، وتفرج عليه ووصفه بإنه مشمس وواسع لكن "المنطقة مش بزيادة ". في النهاية دبّر هو مشترياً بتسليم مؤجل ويمكن سمسر عليه.

الأمور تيسرت والبلاد طلبت أهلها. لن أجد صعوبةً في أن أبدأ حياةً جديدةً هناك. التغيير حلو، حلو ياحسيبة: لماذا لم تتبني طفلاً يتيماً بدل السلحفة؟

fb/mashro3pdf

15

كان يوم خميس آخر خميس في تشرين الثاني، حين أبلغتُها أن الأحد هو يوم زفاف دلال، يسبقه السبت بعد يومين سهرة للنسوان. ذكّرها أن العرس سيتم في كنيسة في عمّان. فضحكت ضحكةً خافتةً: إننا لا نتزوج في الجامع. كانت مرت ثلاثة أسابيع على طه. وأفهمتها أننا لا نستطيع تأخير العرس فهذه رغبة أهل العريس، وتعرف حسيبة أن هذه هي رغبتنا وربيع قلبنا أيضاً. هزت رأسها ووضعت يدها على يدي وباركت لي: ألف مبروك، وتمنت لسامي أن يعثر قريباً على بنت ناس.

ترددتُ في إبلاغها عن خبر البيت، لكن الخبر وصل إلى مسامعها. لا تكون حسيبة حسيبةً إذا لم تشم الأخبار الطائرة في الهواء. مع ذلك تتكتم، حتى لا تبدو كمن يتطفل على خصوصيات غيره، وتنتظرني أن أفاتحها بما عندي. سألتها ألم تدعي (تتضرعي) لنا ببيت جديد؟ أجابت بلى. وهنا أبلغتها أن هناك من عرض شراء البيت ودَفَع عربون، والتسليم بعد أربعة أشهر آخر الشتوية. وسألتني إذا كنا سننتقل إلى عمّان، فأجبتها: إلى الحصن قرب إربد، فقالت إنها تعرف إربد ولا تعرف الحصن، فأوضحت لها إن الحصن في

fb/mashro3pdf

الطريق.. قبل إربد بعشرة كيلومتر. وباركت لي مجدداً وتنهدت قائلة: أحسن. وبدت في حال من التسليم لما تفقده تباعاً. بل بدت مرتاحةً، ارتياح من تتضح له الأمور حتى لو لم توافق هواه. وشرحت لها أننا سنعود إلى بيت أهلي هناك ولن تظل فهدة وحيدة بين أربعة جدران، لا تسمع إلاّ صوت حفيف الشجر ومواء قطط متشردة، فقالت صح لسانك.. أنت نِعم الأخت. ثم شرَدَت وتنهدت وفتحت مواضيع أخرى: يوسف ابنها الكبير في السعودية لم يأت لحضور طه، لم يكن الوقت كافياً ليحضر الدفن كما قال، وكان يجب أن يحضر بعدئذ ليتقبل العزاء، لا أن يقف ماجد وحده ومعه بعض أهل البلد في استقبال المعزين، واستغربت منه فيوسف متدين، وازداد تديناً وهو يقيم هناك. وقد تكفل بإرسال ألف ريال كل شهر لأولاد أخيه اليتامى. قلت لها: هذا هو المهم، فوافقت: المصاري هي المهمة، هكذا أصبحت الدنيا، لم يعد هناك شيء آخر مهم. وقالت إنها زارت أبو يوسف، وطلبت منه أن يتحنن على طه وأنها مشتاقة لهما معاً. فدعوتُ لها بطول العمر. وسألتها كيف ذهبت؟ في تكسي أصفر، قالت. طلبت من السائق في ساعة صباح أن يوصلها إلى المقبرة، وكاد يرفض متعللاً أن هذا هو أول طلب له، ولا يريد أن يبدأ يوم العمل بطلبية للمقبرة. لكنها أسكتته حين سألته: ألم يمت لك أحد،

fb/mashro3pdf

ألن تموت يوماً؟ وأصرت على طلبها، ففتح السائق على تلاوة القرآن في الراديو، فشعرت حينها كما قالت إنها تمشي في جنازتها.

وفيما نحن نثرثر، وكان هناك كلام كثير لم نقله بعد، وصلت فجأةً سيارة ماجد. أسرعتُ في النهوض واستأذنتُ في الخروج.

كان عليّ أن أنتقل من حديث المقبرة والجنازة، إلى كلام عن ترتيبات السهرة والعرس مع دلال التي نسيت جارتنا أم يوسف، ولم أتنبه أنا لتذكير البنت بواجب تعزية الجارة بابنها. ربما لأني لم أرغب في أن أخرجها من جو الهناء الذي هي فيه، أو لشعوري أن البنت ما زالت صغيرةً على هذه الواجبات رغم أنها تعدت الخامسة والعشرين.

أنا التي عقلها صَغِر، سامحوني.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

16

هذه ليست قصتي، بل قصة حسيبة.. أم يوسف.

بما أنني جارتها وصاحبتها الروح بالروح فأخبارها عندي، فقبل أن تتكلل دلال مثل أميرة في كنيسة أبهة بحجم قلعة ومثل القصر في عمّان، وتنتقل إلى بيتها في تلاع العلي، كانت حسيبة سبقتنا في الانتقال إلى عمّان.. لكن إلى مشفى مركز السرطان، فقد ظهر اشتباه بالمرض الخبيث في معدتها، بعدما فحصوا الخزعة. وقد جاء ماجد وحده دون عائلته في ذلك اليوم لهذا السبب وكي ينقلها. قال لها خذي ملابسك الضرورية، ففهمت أن الشغلة صعبة. ركبت السيارة مع ابنها، ثم ألهمها الله أن تنزل. نزلت ودقّت عليّ.. خرجتُ لها وودعتني متحشرجة الصوت، قائلةً إنها لا تعرف متى ترجع. حاولت التهوين عليها، لكنها ظلت حانقةً. استمهلتُها قليلاً وأحضرتُ لها على عجل حبات من المعمول، في علبة بلاستيكية برتقالية لأولاد ماجد، ونسيت أن أقول لأولاد طه الأيتام أيضاً. وأعطيتها قنينة ماء باردةً، فقد يأكل ماجد في الطريق حبة معمول بعجوة ويعطش. سألتها هل توصيني الاهتمام بشيء، فهزت رأسها بتسليم واستدركت بخجل ونصف ابتسامة: تصرفي مع المسخوطة

fb/mashro3pdf

كما تشائين. بدت لعنتها على السلحفة من قبيل التحبب لا الشتم، كما تشتم أم طفلها المحبوب. جلست بجوار ابنها والتفتت إليّ قائلة: إفلتيها (إطلقيها) في أرض الله الواسعة.

عزمتُ أن أطلقها فهذا هو الحل حقاً، ولا بد أن حسيبة فكرت فيه جيداً. فوجئتُ بها: لم يكن يتحرك فيها شيء غير عينيها، وهما أكثر ما يخيفني فيها. مثل تلك اللعب، لعب الأطفال ثقيلة الدم: جسم بلاستيكي وعينان زجاجيتان تتحركان. تراجعت. استشرتُ سامي ماذا نفعل بها.. ولستُ مجنونة بعد كي أستشير عوني، ضحك سامي كمن سمع نكتةً، وأشاح بوجهه عني دون أن ينطق. فقد استقبل وصول السلحفاة بنفسه وفكّر معنا في تدبير مأوى لها، وها هو مدعو لتدبير طريقة للتصرف معها، وبصراحة للتخلص منها. ألححتُ عليه فأشار أن نضعها في منطقة خلاء ونتركها هناك. فلما اعترضتُ بأنها لا تتحرك، قال ولم يفقد تهكمه: لا توجد بعلمي عيادة للسلاحف في الزرقا. بهذا فتح في عقلي طاقة (نافذة)، فطلبتُ منه الاتصال بطبيب بيطري ليأخذها. وهكذا كان صبيحة يوم سبت. وقد رحب البيطري بالعرض بعد استغرابه من أين حصلنا عليها، قائلاً إنه سيجري فحوصات عليها بما يفيدهم في عملهم، ثم يتم التبرع بها لحديقة الحيوانات ما دمنا نستغني عنها.

fb/mashro3pdf

ما إن أوصلها سامي إلى الدائرة أو العيادة، أو التي لا أعرف لها اسماً في مديرية الزراعة، حتى لاحظ تجهماً وعلامات قلق في نظرات البيطري الذي أخذ يعاينها، ولما بدا هذا على وشك قول كلام نهائي، فقد غافل سامي الطبيب وانسلّ عائداً بسرعة، مخافة أن يرغمه البيطري على استردادها. كانت حسيبة حدثتني نقلاً عن ابنها ماجد، أن سلحفاتها الحزينة تعيش فوق مائة سنة، وهو ما أكده لي سامي نفسه.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

(يدان ثقيلتان تضغطان عليّ. تتحسسان رقبتي ورأسي وأقدامي. ليستا يدي المرأة التي أحبها، ولم تكن أمي تداعبني. يدان غريبتان وثقيلتان تضغطان وأنا لا أتأثر. أنا نعسانة أرغب في النوم وقليل من الأحلام. تركتُ صاحب اليدين يعبث بي ويصدر عنه صوت غريب وأنفاسه تقترب مني. بالكاد أسمع الصوت. لا يضيرني أن يعبث بي، فأنا نائمة مثل سلحفاة عجوز. لا أعرف إذا كانت أمي نائمةً أم مستيقظةً، ولا أعرف أين ذهبت المرأة التي أحببتها مثل أمي. حسناً إنها لم تأكلني. إذا أكلني صاحب اليدين الغريبتين، فلن يكون ذلك ذنبي. فقد تركتني أمي، ثم تركتني المرأة التي أحببتها، وبقيت وحيدةً وسط بشر كثيرين.

أنا لا أريد طعاماً آكله ولا ماءً أشربه. لا أريد رملاً أعبث به، ولا حصىً أقذفها بقدمي، ولا شمساً كبيرةً تضيء طريقي، ولا شجرةً أفيء إليها. أريد أن أنام كما كنت نائمةً من قبل. أريد العودة إلى العتمة والدفء. لا حاجة لي هناك حتى إلى أمي. أنا لا أتذكّر أمي، أحبها ولا أتذكرها. أتذكر المرأة اللطيفة التي أحببتها لأنها لم تقتلني.

fb/mashro3pdf

صاحب اليدين يضغط عليّ: لن أبكي. أدفع يده بأقدامي ولا يتوقف عن الضغط. لن أبكي، لن أزعل منه، فقد ذهبتُ إلى النوم البعيد. النائمة لا تبكي ولا تزعل. النائمة تغيب وتطير..).

fb/mashro3pdf

17

بما أنها قصة حسيبة وليست قصتي، يتعيّن أن أخبركم بمواظبتي على الاتصال بابنها ماجد بعد استئذان أبو عوني، وفي أول زيارة لي إلى دلال للمباركة، وكنا ما زلنا نسكن في الزرقا، رتبت أمري على زيارتها في مركز السرطان، وكان مضى عليها فيه أكثر من أسبوع. لم تكن حالتها هناك أسوأ مما كانت قبلاً. بدت مرتاحةً على سريرها. عيناها تلمعان في قميص نوم أزرق فاتح وشعرها مرسل إلى كتفيها، إلى جانب مريضات أخريات تفاديتُ النظر إليهن حتى لا تظهر على وجهي ملامح الشفقة، ويدها اليمنى الناحلة معلقة في أنبوب التغذية. بدت مثل طفل مطيع ينقله أهله من مكان إلى مكان، يثق بسلامة اختيارهم وحُسن نواياهم. بصوتٍ بذَلَت جهداً في أن يخرج قوياً باركت لي في ما عملناه وتمنت لدلال الهناء، وسألتني متى ننتقل إلى بيتنا الجديد، وأنبأتني أنهم قد يعملون لها عمليةً أو لا يعملون.. هم أدرى. وسألتني عن الجارات، وقد أحبت متأخرةً بعضهن مثل أم سمير وفلحة، ونسيت أسماء أخريات. وهي لا تشكو من شيء سوى الزهق، وأن العناية بها عال العال.

fb/mashro3pdf

ماجد بعد وصوله أخبرني على مبعدة من باب الغرفة، أنه لا بد من عملية جراحية لاستئصال الأورام، والمشكلة أنها لا تتحمل العملية، وإذا أجروها فسيفعلون على مسؤوليتنا، وأنه متردد، وزاد على ذلك أنها لا تتحمل الكيماوي.

حسيبة لا تتحمل شيئاً، أنا أعرفها، وعليه لم يجروا لها عمليةً، وقرروا إعطاءها ما يمكنها أخذه من جرعات الكيماوي. وطلبت من ماجد، بل اشترطت عليه وسط ذهوله، أن لا تعود إلى بيتها في الزرقا: لا أعود إليه، حتى لو زعل أبو يوسف.

- من قال إني أقبل بإعادتك هناك، ومن قال إن رحمة الوالد سوف يزعل؟

من معرفتي بها، فهي لا بد اعتقدت أو شعرت أن بيتها الذي تمترست فيه كأنه قلعة، أحبته وتعلقت به مثل مكان مقدس، هو الذي أورثها المرض وتسبب به، وقد يودي بها.

بعدها بثلاثة أسابيع أقل وأكثر، عرفت أنها غادرت مركز السرطان، وإلى بيت ماجد بالطبع. زرتها هناك في حي نزال، في بناية حديثة نسبياً على شارع رئيسي وفي شقة ليست كبيرة لكنها مرتبة ولامعة، وجدت المكان صالحاً كي تشفى فيه روحها. تمنيات المحب وماذا أملك غير التمنيات، فإذا بها بصحة أفضل ومعنويات أعلى، تُلاعب أحفادها وتسرد عليهم حكايات قديمةً عن الغيلان والشاطر

fb/mashro3pdf

حسن، وتتسلى مع كنتها تساعدها في الطبخ وغيره، وتتفرج على التلفزيون وتنقُم على حماس وفتح وعلى اسرائيليين كُثُر لا يشبعون من القتل، ويكذبون مثلما يتنفسون. وقد سألتني هذه المرة بطريقة مواربة عما فعلتُه بالسلحفة، فيما كانت ترمق لوحة ملونة لخيول على جدار الصالون الصغير، فأخبرتها بأني تصرفت بها. التفتت نحوي بنظرات جامدة، وبعد برهة تفكير أثنت علي، وسألت ماذا كان يمكنها أن تفعله معها غير هذا، فأجبتها لا شيء غير هذا، وقد ظنت أني لبَّيت طلبها وأطلقتها في الصحراء أو البرية. وكررت هي أن السلاحف تُعمر طويلاً، لكن هذه الحزينة مقطوعة، لم تعش في الحقول والجبال أو قرب الينابيع. ثم ضحكت ضحكتها الخجولة: كيف يمتد العمر بها وهي تنام وتصحو داخل كرتونة؟

وسرحت وهي ترمقني بنظرات متسائلة: تعرف الكلاب والقطط والخيول بيوت أصحابها وتعود إليها، أما السلاحف الصغيرة فالله أعلم بها.

لا ليست هذه قصتي بل قصة أم يوسف، وقد تباعدت زياراتي لها، فقد تنقلت أكثر من مرة بين الحصن والزرقا لمتابعة ترميم البيت هناك واختيار ألوان للدهان وأنواع الحنفيات والحمامات وتركيب مطبخ.

fb/mashro3pdf

ليست هذه حكايتي بل حكاية أم يوسف، ولو كانت حكايتي لاخبرتكم بالتفصيل كيف ودعتُ أهل الحي، ضحكنا وبكينا نحن النسوان وقلت لهن: كفى أفلاماً فلستُ ذاهبةً إلى أميركا، ومن تشتاق لي فأهلا وسهلاً بها، ببيتنا في الحصن. ودعت أحياء الغويرية وجناعة وطارق وحي الأمير علي والفاخورة والسخنة والزرقا الجديدة، ومررنا بسينما سلوى وركس، وقد رأيت أفلاماً فيهما لعبد الحليم وسعاد حسني وناديا لطفي مع أبو عوني أيام الشباب.

ذهب الشباب وأغلقت السينمات. مات عبدالحليم وماتت سعاد وختيرت (هرمت) ناديا لطفي، وانتقلنا بأثاثنا إلى الحصن. وجدتُ البلدة هادئةً وصغيرةً كأنها مجرد حي في ساعة الفجر من أحياء الزرقا. وقد خفق لها قلبي واستشعرت عودتي لطفولتي، وكنت كمن يستعد لرؤية فيلم عن حياة حقيقية عاشها لكنها مضت وانقضت.

رممنا البيت وجدّدناه بخبرة أبو عوني في مواد البناء والدهان، واستعدتُ فيه عبق العائلة، ولفحتني أنفاس أبي وأمي ونجيب فوق ما أحتمل أحياناً. تصورتني عُدتُ صبيةً صغيرةً وتخيلت بنوع من الهلوسة أني لو لم أفارق البيت لما كنتُ كبرتُ إلى هذه الدرجة، لما كنتَ سمنت، وأني سأفارق هذا البيت ذات يوم مرةً ثانية كما فعلت من قبل. وقد فتح أبو عوني محلاً ببابين في إربد، يعاونه سامي الخريج إلى أن يجد ابننا وظيفةً. ثم فتح لنا زوجي في الحصن، لي ولأختي فهدة

fb/mashro3pdf

(بما اعتبره سامحه الرب ودون أن يُصرح، حصتنا من ثمن البيت)، فتح لنا محل مكتبة، ونبّهنا منذ البداية أن علينا تأمين سداد إيجار المحل مائة دينار كل شهر من عائدات البيع، حتى لا تصبح تجارتنا مثل تجارة جحا.

اجتهدنا أن نكسب الرهان، وخلال ذلك نتسلى برؤية الناس ونتعرَّف.. أتعرَّف أنا على جيل جديد من الصبايا والشبان ففهدة تعرف الجميع حتى من لم ترهم من قبل، ونجرب حظنا ببيع القرطاسية والصحف والمجلات وظروف الرسائل وأحبار طابعات الكمبيوتر، مع ألعاب أطفال ولوحات وألبومات وميداليات وكالونيا رجالي وساعات منبه وأربطة أحذية، وراديوات على شكل ألعاب، لكنها راديوات حقيقية ورخيصة السعر، مع كلف خياطة وكرات صوف وبطاقات شحن الموبايل وما تيسر من نثريات.

وقد أضفت إلى المحل بعض الكتب: عشرين كتاباً اشتريتها دفعة واحدة من مكتبة حجازي في إربد، منها ستة كتب من سلسلة عبير، احتجّت فهدة أن رفوف المحل لا تتسع لها لكني دبّرت لها مكاناً، ثم قالت إن الرسومات الدينية أفضل فقلت لها: اللوحات والكتب معاً، فيما رأى أبو عوني أن تجارة الكتب بائرة لا يتاجر بها أحد هذه الأيام وحذّرني منها، أما سامي فوقف على الحياد. بعض الزبونات ممن لهن مونة علينا وما أكثرهن، طلبن استعارتها باعتبار أن الكتب لا تستحق

fb/mashro3pdf

دفع نقود لقراءتها، وأن قراءتها وإعادتها لا تنتقص منها شيئاً، وكانت فهدة تسارع من جهتها وتوافق على الإعارة، ما وضعني في مواقف مُحرجة أنا الجديدة على البيع والشراء، وقرأت بعضاً من الكتب في الأماسي في البيت، لم يكن بينها كتب لجبران خليل جبران فلم أجد مؤلفات له.

ولم أنس حسيبة ولن أنساها، فذات يوم لسعني قلق عليها، وتمنيت على أبو عوني أن يسمح لي بخطف رجلي (بتحرك سريع) إلى عمّان لزيارتها.

وصلت إلى بيت ابنها بعد الواحدة ظهراً، مع أن الزيارات في مثل هذا الوقت قبل موعد تناول طعام الغداء ليست مناسبةً، لكني لم أعتد الرسميات معها. ما أن دخلت البيت حتى اصطدمت بغيمة سوداء. وجدتها على سريرها شديدة النحول مثل شبح، تغيرت سحنتها وذاب جسمها تحت ثوبها. أخذت تنظر إليّ نظرات مواربةً: نظرات العجز البدني وضعف التركيز الذهني، وليس لها أي معنى سيئ. لم تتكلم حتى انسحبت كنتها وتركتنا. قالت عندئذ بصوت مبحوح يخرج من صدرها: عرفت أنك كنت ستأتين لكنك تأخرت. وأخبرتها بأني أصبحت مع فهدة صاحبة محل، ولم أعد أملك وقتاً كما من قبل. فباركت لي ما فعلت ووصفتني بأني أخت الرجال

fb/mashro3pdf

وأحسن من كثير منهم. وأطرقت برأسها وتمتمت: ألم ترجع.. ألم ترجع السلحفة؟

لم تعطني فرصةً للرد، فقد شهقت تلك الشهقة ومالت برأسها، في وقت اندفع فيه الحفيد والحفيدة عبر باب البيت، عائدين بصخب من المدرسة.

fb/mashro3pdf

شكر وتقدير من المؤلف للأصدقاء:

- الناقد القاص: د. سليمان الأزرعي.
- الناقد القاص: د. أحمد النعيمي.
- الناقد الروائي: عواد علي.

fb/mashro3pdf

صدر للمؤلف

- إخوة وحيدون (نصوص) 1995 – عمّان
- كل ما في الأمر (نصوص) 2000 – عمّان
- المجموعات القصصية السبع - 2002 – عمّان
- لقاء لم يتم (مختارات قصصية) - 2002 عمّان
- الوديعة (قصص) ط1 2004 عمّان، ط2 2007– القاهرة.
- سحابة من عصافير (قصص) - 2006 لندن، بيروت
- رجوع الطائر (قصص) 2008– دار فضاءات عمّان.

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

من ينظر إلى عينيّ يرى أني أتكلم باطنياً مع الماضي والآتي، مع الفراغ والامتلاء، مع الغبار والشعاع، مع الكائنات القريبة ومع أهل جنسي، لكنهم جعلوني أتكلم.

أنا وحيدة لا أحتك بأحد ولا أحد يحتك بي. المرأة وحيدة مثلي لا تحتك بي ولا تحتك بأحد. لذلك أنا أضرب جدار بيتي لأتسلى، لتعرف المرأة أني امتلأت بالعتمة وأرغب برؤية الضوء، أني جُعت أريد طعاماً. عطشت أريد ماءً.. ضجرت أريد أن تصرخ بي، أن ترقص لي.

فضاءات
فضاءات للنشر والتوزيع والطباعة
عمان - الأردن - تلفاكس: ٠٠٩٦٢ ٦ ٤٦٥٠٨٨٥
dar_fadaat@yahoo.com
9 789957 301026
SERIOUS® Design

fb/mashro3pdf